

مَدِينَةُ الشَّمْسِ

مَدِينَةُ الشَّمْسِ

(رواية)

مينا ناجي

الطبعة الأولى / ١٤٤١هـ، ٢٠٢٠م

حقوق الطبع محفوظة



دار العين للنشر

٤ ممر بهلر - قصر النيل - القاهرة

تليفون: ٢٣٩٦٢٤٧٥ ، فاكس: ٢٣٩٦٢٤٧٦

E-mail: elainpublishing@gmail.com

الهيئة الاستشارية للدار

أ.د. أحمد شوقي

أ. خـالد فهمي

أ.د. فتح الله الشيخ

أ.د. فيصل يونس

أ.د. مصطفى إبراهيم فهمي

المدير العام

د. فاطمة البودي

الغلاف: عبد الرحمن الصواف

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ٢٠١٩ / ٣٦٤٥٣

I.S.B.N 978 - 977 - 490 - 570 - 4

مَدِينَةُ الشَّمْسِ

رواية

مينا ناجي

دار العين للنشر



بطاقة فهرسة

فهرسة أثناء النشر إعداد إدارة الشؤون الفنية

ناجى، مينا

مدينة الشمس: رواية/ مينا ناجى.

الإسكندرية: دار العين للنشر، ٢٠٢٠

ص؛ سم.

تدملك: ٤ ٥٧٠ ٤٩٠ ٩٧٧ ٩٧٨

١- القصص العربية

أ- العنوان

٨١٣,٠٨٧٢

رقم الإيداع / ٢٦٤٥٣ / ٢٠١٩

إلى ماما

(1952 - 2019)

«لا شيء أكثر طرافةً من التعاسة، أو افقك . لكن ...
بلى، بلى، إنها أكثر شيء هزلي في العالم» .
مسرحة "نهاية اللعبة" - صمويل بيكيت

المَهْمَة الأولى

جاءت أول مَهْمَة سريعًا. عميل فرنسي يطلب التحقيق بشكل سري في عملية اختفاء غامضة.

في الواقع عميلة، كما أوضحت بعد ذلك مشيرة إلى اسمها بحرف د..
جاءت المهمة عبر إيميل قصير بإنجليزية باهتة يبلغ عن عملية اختفاء مفاجئ حدثت في إحدى ضواحي باريس، وتعلن راسلته عن رغبتها في استكمال التحريات لأن التحقيق الرسمي قد توقف بعد بضع إجراءات شكلية.

ردح. برسالة فُكّر في صياغتها كثيرًا مع م. مضمونها ألا تقلق، فهي قد أعطت القضية لخبراء في المجال، وإنهما سيوافوها بالتقارير بشكل منتظم كل أسبوع أو مع أي جديد يطرأ. عليها فقط بموجب الاتفاق أن تدفع

خمسُ الأتعاب مقدّمًا، بجانب أي بدلات ومصاريف ضمن عملية التحقيق نفسها، وفي النهاية ختم الإيميل بإمضاء H&M.

حين انتقل ح. وم. للمكان الجديد، أعدّا قائمة بالأشياء المطلوبة: مانيكان أزياء، شينيور، بطارية مهبل صناعي وعلب نوتيل. الحل المؤقت لحين تقاطر الأجساد الأثوية التي تتحرك تلقائيًا بإرادتها الخاصة. فكّر م. في شراء عدد زوجي من تلك الأشياء لكنه تراجع ورجّح استخدامها بعد غسلها جيدًا. وافق ح. وأضاف أن الأهم من الغسل قبل الاستخدام هو الغسل بعده وأرفقها بمنادى للتنبيه: «يا.. أمّك».

بعد مناقشات طويلة أضافا للقائمة: كاميرات صغيرة لتسجيل اللقاءات المتوقعة، وشاشة بلازما كبيرة 62 بوصة، وبلاي ستيشن 4، وعصوين تحكم أصليين، وغلينين أبنوسيين بمعدات الحشو والتنظيف والصيانة، وعصوين سيلفي، ولابتوبين (ماك برو)، وبذلتين (زنثاي) كاتوشوك بألوان الأزرق والأحمر، وملصقات كافكا وبول أوتر وهيتشكوك، وفابيرتور وردي للجشعات، وقاموس (ولبستر) للطلاب، واشتراك بلاتنيوم لمواقع البورن الرئيسية، واشتركا ذهبياً لصالة الألعاب الرياضية (جولدز جيم)، والإلياذة، والأوديسة، والأعمال الكاملة لج. ك. تشسترتون، وسيجموند فرويد، وجورج فيلهيلم فردريش هيغل، وجورج باتاي، وفريدريش نيتشه، وجورج حنين، وإدمون جابيس، وموريس بلانشو، وأليس في بلاد العجائب، وخلف الزجاج العاكس وما رآته أليس هناك، وبلا أجنحة،

وسبائية البحث عن الزمن الضائع، وثلاثية رأس المال، وصورًا عارية موقعة من كيم كاردشيان ومونيكا بيلوتشي ونيكي ميناج، وداملز 5 و10 و25 كيلو، وعقلة، وبارًا حديدًا بتارات متدرجة الأوزان، وعجلة ثابتة، ومشاية، وجهاز بنش، وأكتافًا، وحلبة ملاكمة، وقفازات، وشورتين، وواقيا أسنان، ومنظمًا لضربات القلب، وعكازًا مزدوجًا، وجهازًا لقياس الضغط وجهاز لقياس السكر، وحبوب تخسيس، وصندوق (بلاك ليل) وصندوقا (بيليز) بنكهة الشوكولاته والكراميل، وصندوق فودكا (سميرنوف)، وصندوق شامبانيا فرنسية، ومجموعة الأفلام الكاملة لإنجمار بيرجمان وجان لوك جودار ولوي مال وروي أندرسون، والتبرع لصندوق (تحيا مصر)، وأريكة حب متعددة الأجزاء، ولبات حمراء، وكهارب ملونة ومفارش حريرية حمراء وجلد النمر، وقناع جدي وقناع وعل وقناعين فيفي عبده خمسة مواه، وعلب ترامادول وزاناكس، وعلب سيالس، ولحوم وأرز وفراخ ومكرونة ومعلبات تونة وسردين وبلوييف ولانشون وكل حيل الشيطان ومؤامرات الناس الأشرار، وشهادة دكتوراه من الكلية الملكية للطب النفسي بلندن، وشهادة دكتوراه في الأدب المقارن من جامعة (بيركلي)، وخريطة للعالم، وخريطة لمصر الجديدة، ومشوش إرسال، وأسطوانات أصلية لمحمد عبد الوهاب من شركة (بيضافون)، وجهاز بيك أب، وساعات ستريو 7000 وات، وعلبة معجون أسنان (سنسوداين) للأسنان الحساسة وفرشتين بمواير صغيرة مختلفتي اللون عليهما رسوم بطوط وميكي، بطوط ل م. وميكي لح..

في نفس اليوم تحدثا مع العميلة د. عبر سكايب حديثاً صوتياً فقط دون صورة بناءً على طلبها. بإنجليزية مفككة ذات لكنة فرنسية ثقيلة حاولت أن تشرح أن المفقودة لديها طفل وحيد ولا بد أن تعثر عليها في أقرب وقت. تناوبا الأسئلة وفهما منها أنها في يوم الاختفاء كانت عندها بالمنزل. شربت كثيراً ولم تستيقظ سوى في المساء فلم تجدها، بل وجدت ف. شريكها، الذي أبلغها أنها لم تكن موجودة حين جاء بعد الظهر. سألها م. إذا كانت تظن أنها قد انتحرت، فنفت بحدة قائلة إن «داليا» ليست من هذا النوع بل تحب الحياة، كما أنها لم تترك رسالة أو أي شيء آخر. في النهاية، اتفقا معها على بدء التحريات سريعاً وإعلامها بأي معلومات يتوصلان إليها.

بدايات

بعد عامين من المحادثات على الفيسبوك قرّر ح. أن الوقت قد حان لافتتاح دار النشر (إيليتيس) بمنطقة مصر الجديدة.

مدفوعاً بالوحدة والملل، صرف ح. نصف إرثه عن أبيه ونزل أخيراً إلى القاهرة. سجّل اسم الدار في الشهر العقاري واستخرج تصاريح التأسيس والسجل التجاري والبطاقة الضريبية، وعثر م. عن طريق أمه على شقة قريبة من مكان عملها في شارع (يعقوب أرتين) بإيجار شهري 4000 جنيه. الشقة واسعة تقع بالدور الثالث وبها ثلاث غرف قسموها إلى غرفتي نوم وغرفة مكتب، بجانب المطبخ والحمام.

كانت خطتهما أن يحصلوا على حق نشر أعمال كاتبين معروفين - في الوسط الثقافي على الأقل - كبداية قويّة للدار، وبعدها ينشران أي شيء لأي أحد. اعترض م. في البداية مستدعياً مقولة ناشر أجنبي نسي اسمه:

«هناك مئة مليون كاتب حول العالم، لذا من الصعب أن أجد ما أنشره ويكون جديدًا». شَخَّرَح. قائلًا إن هذا كلام ساذج لا يؤكل عيش وأن هدف المشروع أصلاً هو إيجاد مصدر دخل ثابت له. رضخ م. في النهاية لأن ما يهيمه في الحقيقة هو أن تكون الدار داخل محيط مصر الجديدة، وأن يستقل عن بيت أهله بعد تخرجه من الجامعة في سن السابعة والعشرين. وفوق ذلك أيضًا سيحوز على برستيج لقب ناشر. حاول م. أن يجعل نقطة مصر الجديدة في صالحه بأن يقنع ح. أن الدار ستغطي مناطق لا يوجد بها أي دور نشر، لكنه لم يهتم بتلك التفصيلة على أي حال.

لمدة أسبوعين لم يحدث أي شيء. لم يأت أحد. أي أحد.

كانا يقضيان معظم اليوم معًا في الصلاة أمام شاشة البلازما الكبيرة يتفرجان على فوكس موفيز وإتش بي أو وناشونال جيوغرافيك أو يوصلانه باللاب توب ليشاهدتا مسلسلات سيت-كومز أمريكية وهما يحششان وعلب البيتزا والبيرة وأكياس الدليفري الورقية ملقاة حولهما في كل مكان.

أمام مسلسل (ساينفيلد) أعلن ح. وهو يقضي على الجوينت في يده، دون أن ينظر تجاه م. أنه مكتتب. كانا لا يريدان مصارحة بعضهما بتسلسل شعور الملل والكآبة، فهما في بداية حياة جديدة شائقة. أوقف م. الحلقة وسأله وكرشه يبرز من القميص الهاواي الأحمر المفتوح إذا كان مكتتبًا لأنهما بمفردهما في يوم الفلانتاين. نفى ح. بحدة وقال إنه يشعر بعدم إنجاز شيء حتى الآن، سواء في الكتابة أو في الحياة عمومًا، وأن شعوره الذاتي كشخص

بالغ الأهمية لا يكفي كما اكتشف أثناء تفكيره في الأمر هذا الصباح.

قال بنبرة حزن وهو يشعل سيجارة: «أنا عايز الناس تحس». ثم سأله إن كان يعرف «محمد الياني» لاعب الكرة. نفى م. بهز رأسه في بطاء، فقال له إنه في عمر السابعة عشرة أجمع الناس على أنه سيصبح أفضل لاعب في مصر، وربما على مستوى العالم، بعدها فشل فشلاً ذريعاً، اتضح أنه لاعب سيئ، وهو لا يريد أن يصبح ياني الكتابة. بعد فترة من الصمت قال بحزن أكبر: «تعرف إني يوم 1 أبريل الجاي هانهار، هازعل جداً، خايف من اليوم ده».

سأله م. لماذا 1 أبريل تحديداً، فرد:

«حد قالي على موقع بيعت ايميلات في يوم تحدده، أنا اخترت يوم عيد ميلادي وبعث لنفسي إيميل، بعث قائمة حاجات المفروض أكون أنجزتها قبل عيد ميلادي، عشان أفتكرها وأحس إني أنجزت. ولا شيء من الحاجات دي حققته، وهيوصلني الإيميل، وهازعل. تعرف، لو نقطة واحدة كانت اتنفذت كنت ممكن أضحك على نفسي وأصبر نفسي شوية».

فكر م. قليلاً وقال:

«أظن أسوأ من دا إن حد بيعت رسالة فركشة في 1 أبريل، الطرف الثاني هايفضل فاكتر إنه بيهزر وهو بيحاول يشرحه بكل الوسائل إنه بيتكلم بجدة».

صمت ح. ولم يعلق، ثم استأنف كلامه:

«فكرت النهاردة إني هافتح الإيميل يومها وأمسح الرسالة من غير ما أقرأها واتصرف كإني مشفتهاش.. مخطط لكده».

قام من مكانه فجأة وركل علبة بيتزا كبيرة الحجم فتناثرت بقايا الطعام منها في كل اتجاه، وقال كأنه يعد جمهورًا كبيرًا أمامه:

«هاخرج كل يوم ساعة، ألعب بلياردو، أو أقعد على القهوة، ساعة أو ساعتين. وهادخل في علاقة». اندمج أكثر فارتفعت نبرته: «والله لازم الشهر دا أدخل في علاقة». وأضاف بطريقته الأثيرة في رمي مقولات غير متوقعة: «إذا امتحنتَ بعدم وابتليتَ به.. فاجلد عميرة حتى تقضي المحن»، ثم دخل غرفته وأغلق الباب خلفه.

بعد ساعتين دخل ح. فرع (البنك الأهلي) بمصر الجديدة ليسحب مبلغًا محوّلًا من أخيه الذي يعمل مهندسًا في الخليج، كي يدفع الفواتير المتأخرة من الشهر الماضي. سحب رقمًا وجلس ينتظر. رآها أمامه تجلس بجانب طفلها الصغير الذي يلعب في فجوات كرسيه.. شيري.. شيرين.. الفتاة الأولى التي أحبها في حياته. كانت قد كبرت. هذا الجسد الذي كان أول شيء يدخله في حياته ويعترف أمامه بحبه قد امتلأ وترهل بعد أن كان جسدًا مشدودًا بمفاتن بارزة. تذكر رائحة فرجها الشبيهة بالسّمك

النيء قبل قلبه أو شئيه. رائحة زفرة أدمنها مع الوقت. شعر برغبة طاغية في الذهاب إليها وترجيها أن تترك زوجها وترحل معه، أو حتى دون تركه، فقط أن يكونا معًا من جديد كما كانا وهما لا زالا مراهقان صغيران. أراد أن يقول لها إنه سيصرف كل ما لديه عليها وعلى أبنائها وعلى زوجها، لكنه جلس مكانه ناظرًا إلى شاشة الأرقام فوق الكاونتر يعدُّ كم رقم تبقى على دوره ورائحة السمك النيء عالقة بأنفه.

وَاحَة (هيليوبوليس)

كتب الأب تيار دي شاردان لوالديه رسالة في الأول من نوفمبر سنة 1906 يقول: «في ذلك اليوم مررتُ بأعمال البناء الضخمة للـ «واحات». هذا هو اسم مدينتين نموذجيتين صغيرتين أقامهما رجل أعمال بلجيكي كبير في عرض الصحراء عند بوابات القاهرة، حوالي منتصف الطريق إلى المطرية. كل مدينة صغيرة ستكون معزولة عن العمران: البيوت التابعة لها كلها يجب أن تحتوي على حديقة وتحقق شروطاً صحيّة وجماليّة معينة. خط سكة حديد كهربائي (للمجتمع المتروبوليتاني) سيربط المكان بالقاهرة. الخطة جميلة، والآن يمكن رؤية واحدة من الواحاتين. وأول شيء سيتم بناؤه هو فندق ضخم».

دخل م. وح. فرع كارفور يرتديان شورتات وكابات صيفيّة مع صنادل خفيفة، يمسك كل منهما سلّة معدنية، ليجدا نفسيهما داخل ممرات طويلة

يؤدي كل منها إلى الآخر. مشيا من ممر إلى ممر يليه يتبضعان، وبعد انتهائهما شرعا في البحث عن المخرج. يريا شيئا أشبه بمخرج حيث يقترب الناس من الاتجاه المقابل، لكنه يتكشف في النهاية عن مرآة تغطي مجمل عرض وارتفاع الجدار، بينما الناس الذين كانوا يقتربون لم يكونوا غير انعكاساتهما المتعددة، فيتجهان إلى ممر آخر ثم إلى ممر ثالث ورابع، وكل ممر لا ينتهي إلا إلى مرآة.

بعد التجول صامتين بعض الوقت، أدرك م. وح. أنها قد تاهتا تمامًا. أمسك م. برقبة ح. من ياقة تيشرته. ولتفاوت الحجم بينهما، كان منظرهما كأمين شرطة في مصيف يمسك بلص هزيل، لكن الشرطي يقول في نبرة رجاء إنه خائف ويشعر أنه سيموت، أمسك ح. قبضة م. وسأله في توتر: «قولي إنك خائف من إيه؟»، فرد أنه يريد الخروج، وبدأ يشهق بصوت عال ويتحرك في كل الاتجاهات بسرعة يمسك الأشياء المعروضة بعشوائية ويتركها، حتى لمحا عاملاً يرصّ بعض العلب على الرفوف. جرى نحوه م. فأشار له الرجل على طريق الخروج.

هدأ روع م. ونبه ح. أنها قد نسيا التونة، فأكملا سيرهما وم. شجاعٌ كقرص زاناكس وهادئٌ مثل إصبع حشيش. قال ح. واضعاً يده في جيب شورته الكريمي الطويل ذي الجيوب الكثيرة كأنه يشرح أمراً ما لتلميذ عنده: «والإله هو الذي يؤله له. إما لشدة طرب العبد وسروره، وإما لشدة حزنه وخوفه. فيكون بين وقتين: وقت قبض ووقت بسط». أضاف وهو

يضع علب التونة في سلته: «ففي حالة القبض يوجب له هيبة، يصحب طرفها دهشة، وفي حالة البَسْط يوجب له قرب، يصحب طرفها فرحة».

كان ح. لديه قناعة أن له ثقلاً وجودياً يجتذب الإناث، وأنه لو أراد الدخول في علاقة سيدخلها فوراً دون أي مجهود. وكمدرب سيرك بارع قادر أن يروّض أشرس الإناث، وهو النوع الذي يفضّله: الأنثى النَمِرة. راهن م. أنه يستطيع أن ينام مع أي أنثى يختارها على أن تكون بين 18 و45، ويوفر معها لقاءً عابراً لا يتعدى ربع ساعة. وتحذاه أن يطرح أي اسم عليه. اختار م. شابة مطلقة غريبة الأطوار ينام معها في خلال 10 أيام. قبل ح. فوراً. وضح م. أن التحدي يبدأ اليوم. اعترض ح. قائلاً:

«يا عم أخرج الأول بس، عايز تاخذني من الدار للنار، إنت إيه، كافر؟!»

رد م. في لا مبالاة أنها بالفعل كفرة. وأضاف أنه لم يصيّف منذ عشر سنوات، لم يرَ بحرًا ولم يذهب إلى شاطئ ولم يخرج من القاهرة، ثم سأله في جدية:

«تفتكر فيه أمل نصيّف؟»

قال ح. كأنه لم يستمع إلى ما يقوله:

«تعرف كان نفسي أشتغل إيه؟ متحر خاص. لكن للأسف المهنة دي

غير قانونية في مصر. دي تقريباً المهنة الوحيدة اللي حبيت أشتغلها بجانب الكتابة».

تحمّس م. لما يقوله فأكمل ح.:

«لكن محتاجين قضية نشغل عليها..»

قاطععه رنين جرس الباب، فقام وفتح لديلفري مطعم البرجر. نظر ح. إلى الساندوتش بعد أن أخرجه م. من علبته وعلّق بأن هذا أكبر سندوتش هامبورجر رآه في حياته. شعر م. أنه يريد أن يأكل معه، فقال في حدة مازحة إنه قد عرض عليه أن يطلب معه لكنه رفض. برّح. أنه جاع من منظر السندوتش المهول، ويفكر أن يطلب الآن واحداً لنفسه. جاب م. وهو ينهش في السندوتش والكاتشب والمايونيز والمستردة يلوثون فمه وتبرز شريحة بصل من الجانب، كأنه يحدث نفسه:

«أنا في حياتي كلها، حياتي الي أنا عشتها يعني، ماشفتش عذاب كده.. أنا في أيام مبقاش عارف إيه الي بيحصل، كأن دماغني بتشتغل غلط ومش عارف أوقفها.. يعني مثلاً أنا شفت ديجافو دلوقتي، وأنت قلت المرة الي فاتت لو شفت ديجافو أقولك.. أنا شفت ديجافو أنا بقولك إني أنا شفت ديجافو، يعني الي بيحصل دلوقتي ديجافو».

كان ح. غير متبّه لما يقوله م. منهمكاً في البحث عن رقم المحل وجلب هاتفه للاتصال. يلتفت م. ويقول لح.:

«كل ماتكبر في السن، يبقى موضوع العلاقات أصعب». وأضاف أنه فكّر في مواصفات الفتاة المثالية له: 1- تعيش في مصر الجديدة. 2- تسكن بين الدور الأول والسادس. 3- جميلة ومثقفة وطيبة وشخصيتها جذابة. 4- لا تريد الزواج.

قال أيضًا إن الموضوع لا يضايقه طول الوقت، لكن هناك أشياء بسيطة ممكن أن تحزنه عليه مثل صورة منظر طبيعي جميل خارج مصر، أو اثنين بيدان علاقة بيتسمان مثل الحمقى على النيل بدون ظهور الخوف والفرع على وجهيهما، لكن أكثر ما يضايقه، يقول لح.، إنه حين يتمعن في الأمر يجد أن فئاته المثالية التي يريدها لو وجدت فعلاً، فعاجلاً أم آجلاً ستشعر بالملل، لأنها سيتقابلان فقط في مصر الجديدة، ولو لم تمل سيمل لها، وسيكره نفسه، ولو حدث إنها خرجت في أماكن أخرى بدونه سيكرهها ويحقد عليها ويشك فيها. وإنه يدرك، بقليل من التفكير، أن شخصية مريضة أو مضطربة هي فقط من تستطيع إعطائه ما يريد وتقبله مثلما يتقبلها، لكن المشكلة أن تتوافق الأمراض والاضطرابات معاً. واستنتج من ذلك أن العلاقة الجيدة مجرد توافق في الأمراض. سكت قليلاً متأملاً هذا الاستنتاج ثم قضم قطعة أخرى كبيرة من الساندوتش الهائل قبل أن يسأل وفمه ممتلئ:

«ليه مش شافين إن اللي بيحصل في العراق وبعدها سوريا وليبيا والمنطقة كلها ممكن يحصل في مصر؟» بلع بعض الطعام وأكمل بشكل أكثر وضوحاً وغضباً: «منين اليقين دا؟!»

فهم ح. ما يقوله بطريقة ما، والهاتف على أذنه ينتظر رد المطعم، فرد بشكل موجز:

«هما عارفين وحتى مقتنعين، لكن لازم مأساة عشان يستوعبوا.. لازم يتفشخوا»

رد م. بحدة شديدة:

«طيب محنا بميتين أمك هانتفشخ معاهم برضوا!»

نُخْبَة

«لسه جاري ميت إمبراح، أبوه ضربه بالقلم، أبوه في السعودية وبينزل كل كام سنة يقعدله كام أسبوع، حصلت خناقة ما بينهم فبلع علبة منشطات من بتاع الجيم».

هكذا بدأ مهند الشاعر كلامه فور جلوسه ووضع بعض الكتب أمامه فوقها علبتني سجائر مارلبورو أحمر. خلف المكتب يجلس ح. مدخناً وقبالته م. يقبع أمامه لابتوب مفتوحاً على موقع (الفيسبوك). نظر إلى م. وأضاف في حماسة:

«إنت عارف إن بنات عمي الاتنين انتحروا؟ اتنين إخوات، واحدة وأنا في ابتدائي وواحدة وأنا في الجامعة.. الأغرب المنتحرة الأولى، قبل فرحها بإسبوع، وكانت بتحب خطيبها جداً، اشترت سم فيران دوبته في ميه وشربته، وبعدين قعدت تصرخ فودوها المستشفى، قبل ما توصل كانت

اتعمت ونظرها راح.. قعدت بتاع ربع ساعة في المستشفى وماتت، وهي في الطريق بقت تقول مش عايزة أموت.. الثانية بلغت حاجة وعشرين قرص منوم وكانت متجوزة وعندها بنتين، كنت متربي معاها..».

الاستمتاع البادي على وجهه وهو يحكي أصاب م. بالقرف، فرجع إلى الشاشة أمامه يشغل نفسه بالتعليق على منشور أحد الأصدقاء.

يكذب مهند طول الوقت، ويغلف كذبه بحماسة وتأکید عاطفي كبيرين، فيبدو الكذب للمستمع الذي لا يعرفه جيداً، حقائق. وتعكس عيناه نوعاً من المهانة ممزوجة بغل وتحفز مكتوم، وتفلت بين الحين والآخر، حائنة تودده وتملقه الأولي، غضباً شديداً. غضب سرعان ما يترجم إلى عنف يتحول إلى سادية حين تحين الفرصة، والتي تظهر فجأة وسط طريقة كلامه الحميمية، وتتغير معها ملامح وجهه كأنه يعاني أو كأنه يمنع نفسه بصعوبة من أن يقوم ويطعن محدثه. لكن لكونه ضعيف الشخصية، فهو يخرج عنفه بأخبث الطرق، وإذا رأى انعطافته الغريزية أتت بنتيجتها، يبدع في تأليف قصة كاملة واختيار ألفاظها بعناية كي تحدث الوقع المطلوب. يؤلف بحسب اللحظة قصصاً دموية صادمة، أو علاقات عاطفية محترمة، أو فتوحات شائقة، أو كتباً خيالية ستشر، أو مآلاً وفيراً أتى بفعل بسيط منه. يتبدى أيضاً عنفه بوضوح في شتم من أمامه، بطريقة لا تحسب عليه، كأن يتطوع مثلاً بتقديم خدمة ما لجلس، شراء كتاب أو تخليص مصلحة، ثم يبدأ في شتمه بعنف شديد كإظهار للحميمية، أو يكيل الشتائم بغضب وعن

مفرطين في شكل نصيحة لمتحدث يؤنبه ضميره من موضوع ما.
«إنت يا وسخ مش قلت الديوان بتاعي هاينزل الأسبوع دا... دانا
هافشخك».

رد م. مدافعاً عن نفسه:

«ياعم إنت شايف حاجة نزلت لسه، كله في المطبعة».

التفت مهند إلى ح. وقال:

«تخيّل العلق دا كان عايزني أدفع فلوس».

رد ح. مصطنعاً الهدوء:

«أنا اللي قتلته تدفع فلوس.. أنا مش فاتحها سبيل، وإحنا هانزل ديوانك
بس عشان نزق عجلة الدار وبعدين هاتدفع زيك زي أي كلب غيرك».

ارتبك مهند وغير الموضوع بسرعة:

«أدفع! ماشي ياعم.. وأنا اللي جايبلك حته هاتحلف بيها... مقلبها من
حبيينا واستحرمت ماتعديش عليك..». ثم أضاف بكم هائل من الشتائم
كيف إنه يستجدع معه وهو يخرج من جيبه قطعة حشيش عريضة غامقة
اللون.

مد م. يده ليراها فدفع يده في عنف كأنه يوجه إهانة ح. إليه:

«شيل إيدك يا روح أمك مش هاتشم منها حاجة».

صاح م. معترضًا:

«ماهو قالك إنه هو الي عايزك تدفع فلوس أنا مال أمي».

رد مهند بطريقة هادئة وودودة فجأة:

«هو صحيح أمك بتشتغل في المبني العجيب دا الي في وش العمارة؟»

بدا الاندهاش على م. أن مهند يعرف تلك المعلومة. فلا أحد يعرفها سوى ح.. سألته كيف عرف، فجاوب أنه رآها واقفة أمام مدخل المبني المقابل تسألته إذا كان صاعدًا إليه، وأبلغته أنها والدته. لم ينس أن يضيف:

«ست طيبة ولطيفة مش زيك ع*ص».

دفس م. وجهه مرة أخرى في اللابتوب مستاءً أن مهند عرف أي شيء عنه أو عن أمه، ولأنه لم يقدر أن يمسك عليه عنقه، فالأم في جلسات المصريين أهم من الكرامة الشخصية. في نفس الوقت دخلت سميرة إبراهيم من باب الشقة متأنقة كأنها ذاهبة إلى حفل أو سهرة.

سميرة شاعرة أيضًا، فالشعراء هم أول من يهجموا على دور النشر مثل الجراد ويعششون فيها ويحتلوها. تضخمت سميرة مع الزمن وزاد جنون عينيها وضحكاتها المخبولة ذات الصوت المزعج. سميرة تفكر بسرعة ونهم مثل حركة عينيها المستعرة. تشعر بشراحتها الشديدة لكل شيء، شراثة للكتابة والجنس والعلاقات والشهرة. ذكية لكن تشعر أن ذكاءها ملعون بطريقة ملتوية وممزوج بالجنون أو الخبل. حكى ح. ل م. قبل ذلك أنها

حاولت معه كثيراً، موضحاً أنها لو كانت أجمل لكان رضى لمحاولاتها.
 سلّمت سميرة على الجالسين مقبلة إياهم وحين سلّمت على ح. ثبتت
 عينيهما في عينيه وتركت يدها ببطء ورقة مفتعلة، وجلست بجوار مهند
 وهي تقول ضاحكة إنها تاهت في مصر الجديدة لأن الشوارع كلها متشابهة،
 ثم نظرت لح. وقالت متأملة المكان:

«مبروك الدار، لطيفة بس بعيدة قوي... هو يعني إيه إيليتيس دي؟»
 همّ م. للإجابة لكن مهند سبقه ورد: «إيليتيس دا شاعر يوناني أخذ
 نوبل والشاعر المفضل بتاع م... عفيفي مطر ترجمه بالمناسبة والكتاب
 موجود في دار شوقيات».
 صحّح م. كلامه:

«كان الشاعر المفضل في مراهقتي، بس اسمه حلو وينفع».
 ضحكت سميرة بطريقتها العجيبة موافقة على كلامه، وقالت إنها تقرأ
 رواية جديدة لصنع الله إبراهيم وأخرجتها من الحقيبة وقالت إنها مختلفة
 عن بقية أعماله السابقة، ثم سألت ح.:
 «إنت مش قلتلي إنه عايش في مصر الجديدة».

ردح.:

«م. هو اللي قالي أنا مشفتوش».

قال م.:

«أمي قالتلي إنه ساكن قريب من هنا وكان بيعي العيادات».

سأله ح.:

«طيب ياعم مش نشوفه ينشر معانا حاجة».

التمعت عينا مهند وتدخل في سير الحوار:

«دي فكرة ممتازة.. أنا أعرفه ويمكن أكلهملكم وهاعرف إزاي أقنعه».

تجاهله م. لمعرفته حقيقة تطوعاته تلك، لكن ح. تمس للفكرة وقال له:

«ياريت عشان يبقى ليك لازمة كده بدل ماتنا مكلفنا طباعة وورق

كده ع الفاضي».

تجاهل مهند الإهانة وتوجّه بحديثه إلى سميرة ليسألها هل لازالت ترى فلان، ارتبكت ونفت وقالت إنها لم ترَ أحدًا طوال الفترة الماضية. سألت بدورها م. ماذا سينشرون كبداية فقال:

«مجموعة لصديقنا ميزو، وكتاب مقالات ونصوص لعزیز نصر، ديوان لجو وديوان لمهند، وتلات روايات ل..». قاطعه دخول تُقى وإسماعيل معًا. قال م. بصوت عالٍ يستقبلهم به «أهي تُقى جت ع السيرة».

كان اللقاء الأول بين م. وتُقى غريبًا. لم يكن لقاءً وجهًا لوجه، لكن على إن بوكس الفيسبوك وانتقل سريعًا إلى الهاتف، ليكون أول ما يسمعه م. هو

لهاثها المهتاج في أذنه، فيدعك قضيبه ويسألها إن كانت تشعر به يدخلها. يُدرك فوراً سذاجة وسخافة السؤال، إلا لو كانت القضبان تمر عبر الموجات الكهرومغناطيسية وتسافر في الهواء ل يتم إعادة تكثيفها عند، أو للدقة «في»، الطرف الآخر. تتابع بعد ذلك خليط من لهاث وتأوهات واستجداءات وتعليمات انتهى باندفاع السائل الأبيض وصرخة في الأذن.

«دي أول مرة ليا». تصارحه، ثم تضيف: «طول الوقت ببقى عايزة وبحب أحط الأقلام والحاجات في بُقي». تأثر صوتها قليلاً: «بس عمري ما قدرت أوصل قبل كده». شعر وقتها بأنه قام بعمل خيري وأنه يساعد الناس كما أراد دومًا.

اكتشف م. بعد قليل من تعارفهما أنها كالين واليانج؛ هو خائف من الجنون يتشبث بالعقلانية وهي عاقلة تتشبث بالجنون على حد قول حسين البرغوثي. وبصورة ما ينفّر هذا منها، كأنها تتاجر بالمصائب وتحصّن في الحياة والكتابة بما هو مؤذٍ ومهين. لكنه في نفس الوقت يعزّها لأنها طيبة القلب بالفعل. تُقَى طبيبة تخصص في مجال الأمراض الجلدية رغم أنها لا تحب هذا التخصص، طويلة، تحب الكتابة. ستشر روايتها الثانية ضمن الدفعة الأولى من روايات الدار، محجة أغلب الأحيان. حين سألها م. جاوبته أنها تريد خلعه، دون أن توضح لم لا تنفذ رغبتها رغم تأكيد أهلها أنهم لن يضغطوا عليها إذا فعلت.

أما إسماعيل الجالس على كرسيه الخشبي يتحدث مائلاً إلى مهند بجسده

المليء، فهو مثقف أكاديمي يدرس الدكتوراه في كندا عن الشأن البين-ديني في مصر، ويطمح أن يكون ناقدًا فنيًا واجتماعيًا. ينتمي إسماعيل إلى جماعة الكانطيين الجدد، حيث الاعتقاد أن ممارسة الجنس في الخيال تكفي الإنسان. بجانب ازدواجيته الدينيّة (التي يراها تؤهله لدراساته الأكاديمية) فهو مزدوج الميول أيضًا، يحب الأولاد ويحكي بفخر أنه يطلبهم «دليفري» حتى البيت عبر شبكات سرية. تدرك بعد تقربك منه أنه لا يعرف حقًا ماذا يريد، ناقدًا أم أكاديميًا، ناشطًا أم ماجنًا برجوازيًا، النساء أم الرجال، أم لا شيء على الإطلاق. لحظات الحماسة والعدميّة عنده تكاد تكون بلا فاصل، وحين تواجهه يعترف أنه لا يعرف ما يريد ويكتسب بشدة.

دار الحوار في الجلسة التي اتسعت حول عصام الموسيقي الذي يصطاد الناس على الإنترنت ليشتهم ويسخر منهم بعنف كأنه مسيح مُخلّص جاء العالم كي يحارب ما يسميه «تعريضًا». رأى م. أنه أيضًا له حساباته، فلا يشتّم معارفه أو من يقدر على إيذائه رغم أنهم يرددون نفس ما يهاجمه. أضاف إسماعيل بحق أن عصام يشتّم بطريقة صبيانية رغم كونه خجولاً في الواقع، ثم استدرك في أسف مصطنع أنه في معظم الأحوال لديه كل الحق. علّق م. مؤكّدًا تلك المفارقة ويمثلها تمثيلًا، محاولًا صنع تناقضه الخاص. «دكتور جيكل ومستر هايد» الخاص به.

استلم مهند دفة الحديث وحكى كيف كان عصام يتلعثم ويربش وغرق في ملابسه حين انهال عليه أحدهم بالشتيمة مازحًا حين عرف أنه

كان طالباً في مدرسة فرنسيّة منافسة. وشرح بلهجة العليم أن مدارس الأولاد درجات وطبقات، فقبل وجود المدارس الاستثمارية كانت المدارس العربي الحكومية ترى طلبة مدارس العربي الخاصة مخثنين، والمدارس العربي الخاصة ترى طلبة المدارس الإنجليزية مخثنين مرفهين، والمدارس الإنجليزية ترى طلبة المدارس الفرنسية مخثنين مرفهين بلكنة، وهناك تقسيمات داخلية داخل تلك التراتبيّة تتعلق بمدى نظافة المدارس ومناطقها الجغرافية وقدرة طلابها وسمعتهم على خوض الخناقات، فترى عامة المدارس الفرنسية طلبة مدرسة عصام كمخثنين مرفهين بلكنة عِلقة لا يقدرّون على دخول عراك حقيقي، مما يدفع طلابها لمحاولات إثبات فردية في أي فرصة تكون مضمونة العواقب.

تدخلت تُقى وقالت إنها لا تفهم موسيقاه لكنها تحبها، فصاح ح. معترضاً بأنها خرائية وأيده مهند موافقاً بحماس قبل قيامه ليجيب هاتفه بسرعة خارج غرفة المكتب. أردفت تُقى أن هناك من يستحق هذا التعنيف وأنها تشعر بالسعادة لما يفعله أحياناً لكن في نفس الوقت تشفق على بعضهم لأنهم لا يستحقون منه ذلك.

جاء صوت مهند من وراء حائط الغرفة وهو يتحدث في الهاتف: «حبيبي، طبعاً أجيلك، أنا في مصر الجديدة ألريدي، أنا أقدر أفوت رؤية مولانا الموسيقار عصام برضو»، فضحك كل من في الغرفة. لحظات ودخل مهند ليقول في عجلة: «معلى يا جماعة أنا لازم أمشي جالي مشوار مهم

في وسط البلد» فانفجر الجلوس ضاحكين مرة أخرى وصدحت ضحكة سميرة المسرعة تخرق سحابة الضحكات. وقبل تساؤل مهند عن سبب الضحك اقترح ح. على الجميع أن يخرجوا للغداء في أي مطعم قريب، فشتمه مهند لأنه لم يقترح ذلك إلا بعد أن طلع له مشوار.

إِفْطَارُ كُوز موبوليتاني

تَقَلَّبَ م. في الفراش ليشعر بجسد ما نائم بجانبه. فتح عينيه فوجد فتاة نائمة على بطنها يغطي شعرها الحالك جانبي وجهها. عدل وضعية نومه وحاوطها بذراعه وأغمض عينيه مرّة أخرى ثم أخرج ضراطاً صباحياً طويلاً. مرت دقيقتان كاملتان قبل أن يفتح عينيه على اتساعهما ويتبعد بجسده كأنه لسع من نار. خَبَطَ على كتف الفتاة وفضوله يفوق ذعره. لم تستجب فرفع كتفها بصعوبة ليظهر وجه سميرة مغمضة العينين وعلامات الفراش والوسادة على وجهها خطوطاً ودوائر حمراء غائرة. لم يدر ماذا يفعل فنأدى عليها وزغدها في كتفها فهممت. بعد محاولات متكررة قالت دون أن ترفع وجهها عن الوسادة فبدأ صوتها كأنه من بئر حلم عميق: «أنا سكرانة وخربانة وملقتش مكان أنام فيه». كل ما جاء في ذهن م. وقتها أن أمه ستدخل الشقة وترى سميرة في فراشه، رغم أن أمه لا تملك

مفتاحًا للشقة ولا يهيمه حتى أن ترى فتاة معه في الفراش، لكن لكونه بين النوم واليقظة كان لا يزال الخوف الغريزي يسيطر عليه. فكّر سريعًا فيما يزعجه فاكشف أنه منزعج لأنه لم ينم معها، فقال بصوت عالٍ دون أن يدرك ذلك: «هي تهمة والسلام!».

رن الهاتف. رد بصوت ناعس:

«ألو».

«أنا خلاص قررت انتحر دلوقتي.. النبيت اللي بعمله في البيت بقالي 3 شهور مسكّر وما فيهوش ريحة الكحول.. أنا ها قطع شراييني بالعرض».

«تقطع شرايينك بالعرض؟ دي غلطة بيعملوها الشباب كثير، تقطع الشرايين يبقى بالطول، عشان النزيف يبقى أسرع».

«مش مهم بقا يا عم هو لازم كل حاجة أعملها صح».

أنهى ميزو المكالمة فقام من السرير وذهب إلى ح. فوجد باب غرفته موصدًا. طرق ونادى عليه ليوقطه. بعد فترة طويلة جدًا فتح ح. الباب قليلًا ووقف يستند عليه. سأله عمّا تفعل سميرة في الشقة أو بالأحرى في فراشه، فنظر له باستغراب وقال:

«سميرة؟.. سميرة مشيت إمبراح، إنت عرفت إزاي إن سميرة كانت معايا؟»

فردم. في غيظ:

«بقولك صحيت لقيتها نايمة جنبي».

ردح. كأنه تذكر:

«آه.. إحنا ضربنا جويتين إمبراح من حنة الولا مهند الله يخربيته
وخرجنا سكرنا ورجعنا حششنا تاني، الحنة كانت مكميكة فمودي قلب
واتزربنت عليها واتحانقنا وأنا طردتها من الشقة، هي دخلت تاني وجت
عندك إزاي؟»

سأله لم يوصد باب غرفته مثل الفتيات في بيوت الطالبات، فقال إنه
لم يفكر في غلقه. لكنه اعتاد ذلك كلما تشاجر مع أمه حتى لا تتمكن من
الدخول إليه. تركه م. وهرول إلى الحمام وهو يغتم «الله يخربيت أمك» ثم
أطلق «أح» ممدودة حين تذكر أن عنده ميعاد بعد أقل من نصف ساعة في
شانتيلي الكوربة مع كاتبة على الإفطار لأنه يكتب رواية عن مصر الجديدة
ويرغب في محاورتها عن نشأتها بالمنطقة والاطلاع على روايتها التي تدور
أحداثها فيها. هرول إلى الحمام وقام بطقوس الصباح على عجل ورجع
إلى غرفته ليجد سميرة تحتل كامل سريريه بجسدها الذي يقع بين امتلاء
السمنة والأنوثة ليطلق «الله يخربيت أمك!» أخرى.

(لو شانتيلي) من أجل أماكن الإفطار في القاهرة، بلا زمالك بلا خرا. هكذا قال م. لنفسه وهو جالس في الحديقة المكشوفة في آخر الممر بالداخل. أشعة شمس لطيفة وخضرة تحيط به وهدوء بعيد عن ضوضاء الشارع. شعر كأنه انتقل إلى عالم آخر. كان ينظر إلى قائمة الطعام وفي قبالة الرواية الأربعينية تأكل بالفعل: بيض وتوست وزبدة ومربى وعصير برتقال. وليّة مبالغ فيها، فكر مرة أخرى. طلب لنفسه كلاب ساندوتش مع كول سلو وبطاطس مقلية. كما توقع كل ما قالته كان ترهات، لكنه لم يهتم، لأن كل ما يريده في الحقيقة هو نسخة من روايتها. بعدما انتهت من إفطارها طلبت فنجاناً من القهوة صاحبتة بسيجارة سليمز كارتية. حينها قالت له معلومة جذبت اهتمامه.

«إنت عارف الشقة اللي فوق فودافون الي على الناصية دي، كانت شقة مكتب تحري خاص فرنسيّة، وبابا راح مع عمي عشان يلاقوا راجل نصاب نصب على عمي في مبلغ كبير واختفى وملقحوش في أي حته». لسبب ما شعر أن نطقها «فرنسية» بالفصحى مثل ثنائياً منفراً مع نظارتها الكبيرة ذات الإطارات السوداء المدببة كعين القطعة.

شكرها في نهاية اللقاء على وقتها ونسخة الرواية والإفطار الذي صممت على دفع حسابه ثم ودّعها بحرارة. يحبّ م. الهدايا المجانيّة. أن يُمنح دون مقابل ولو أشياء بسيطة: سجائر، حساب على مشروب أو طعام، كتب، إلخ.. لأنه يشعر بالحب من خلال تلك الهدايا والهبات التي تأتي بسبب

شخصه فقط، كان هذا من بقايا الجانب الطفولي فيه.

انطلق يتمشّي في الكوربة. لم يشعر بشيء. كان لا يزال أثر الإفطار معه لكنه لا يشعر بشيء تجاه المنطقة ولا الشوارع ولا البيوت. بقيت ثلاث ساعات كاملة على ميعاده الآخر مع سارة صديقتها، لكنه لم يرد الرجوع للشقة حتى لا يتعامل مع سميرة، فجلس على قهوة أسوان وطلب حجر عنب وعصير رمان بثمان الإفطار غير المدفوع. يظن م. أنه لو كان أنثى لكان سارة، لذلك يحبها ويجب أن يساعدها، حتى أنه في مرّة عرض عليها أن يدخلها في علاقة.

بعد انقضاء ثلاث ساعات ونصف الساعة، شعر خلالها بالملل، جاءت سارة أخيراً في هرولتها المرتبكة المعتادة، وبعد التحيات والأسئلة عن الحال عرضت عليه أن يهربا سوياً. رد م. أن الهروب في مصر الجديدة مع بنت من غير دينه ولا يملكان مآلاً كافياً لأي شيء فكرة غير سديدة على الإطلاق. ردت بنفس البساطة أن كلامه مضبوط، ثم تحدثت عن صديقه ميزو الذي تحبه من طرف واحد وعن فيلمها الذي تريد صنعه، حلمها الكبير في الحياة، والذي لا تعرف مضمونه ولا كيفية صنعه، لكنه يوجد به الكثير من العواطف والجنس بمذاق لاتيني حارق.

وهما يتحدثان بعدها عن نصوصها القصيرة الجريئة والعنيفة الصادمة التي تكتبها بأسلوب شعري منطلق على مدونة سرية خاصة بها، ويحاول إقناعها بنشرها معه على شكل مجموعة قصصية يقوم بتحريرها،

هاتفه ح. معتذراً عما حدث في الصباح وسأله متى يرجع لأنه يريد في موضوع مهم.

«أنا درست الموضوع كويس وإزاي هایتعمل، لو مش عايز تبقى معايا أنا هاعمله لو حدي».

قالها ح. وهو يتلفت على كرسي المكتب الدوار ساندًا قدميه فوق سطح المكتب ويمسك بتاب تتحرك على شاشته أشياء لا يراها م.

«أنا دعبست في زخانيق الدارك نت، وسجلت نفسي كمكتب تحري خاص، بيشتغل على جميع قواضي التتبع والبحث، والدفع 20% مقدماً والباقي بعد الحصول على نتائج مرضي عنها، وفي حالة عدم الرضا أو تحديداً عدم الوصول إلى نتائج مفيدة ومتناسكة يتم دفع 20% ثانية بس.. بحيث يكون المدفوع كله 40% من المبلغ المتفق عليه.. والزبون له السرية التامة اللي بتكفلها بروتوكولات الدارك نت نفسها».

أشعل سيجارة جديدة من سيجارته الحالية وأكمل:

«الدارك نت يا ضيام. هو إنترنت المستقبل... إنسى فيسبوك وتويتر وسناب-هجايفص والحاجات دي».

سأله م. عن مضمونية الدفع فشرح له نظام الدفع ثلاثي الأطراف

الذي يكون بعملة/البت-كوين بموافقة طرفين من الثلاثة. قال له م. إنه لا يستطيع أن يكون مفيداً غير في حالة البحث على الإنترنت أو المهام داخل مصر الجديدة فقط، وعليه هو المهام خارجها. وافق ح. فبدأ التحمس على م. وقال:

«النهاردة السبت، يعني فيه وجبة «أول يو كان إيت» في مطعم (تكساس تشيكن)، 66 جنيه وتاخذ فراخ وبطاطس ورز بالخلطة وبيسي وسلطة كول سلو وعيش وكل داريفيل، يعني ناكل لحد ما ندرمغ».

أبدى ح. علامات الاستياء على وجهه وقال:

«إنت مش ناوي تحس بقا.. إنت مش شايف وزنك؟.. عاوزين المزر ترف ياعم».

مع ذلك وافق على الفكرة لأنه يريد الاحتفال بتحقيق حلمه القديم أخيراً. فتح صوت التاب على حجره في نهاية الحوار فصدرت أصوات صراخ وتأوهات عالية. كان فيلماً جنسياً منزلي الصنع. النوع المفضل عنده والذي كان ضليعاً بكل جديد فيه.

الحديقة

جاءته الذكرى مرة أخرى في نومه؛ المولد ملآن بالخلق والناس تقترب بخشوع، يهللون باسم والده صاحب البركات والكرامات. كان مركز الأبصار بالجلباب والعباءة على كتفيه صغيرة ومنقوشة بالبني والرمادي وعلى رأسه خوذة حمراء كبيرة كالتى تُرتدى في السباقات السريعة، أصرَّ على وضعها رغم رفض رجال الطريقة، وتحتها طاقة ملونة بلوني الأبيض والأخضر موسومة بنقاط وأشكال صفراء لامعة. من الناس من يُقبل يده ومنهم من يلمسه فقط، بينما يمر هو منتصب القامة وسط صندوق معدني أخضر يحره حصان، يلوح بيده اليمنى في الهواء بوقار للصفين حوله رغم سنوات عمره التي لا تتجاوز السبع.

هذه الذكرى الحُلُمِيَّة جعلته في المساء، وهو يتمشى وحده تجاه الكوربة متسكعًا ومستكشفًا المكان على الطريق الرئيسي حيث توجد آثار خط المترو

المنزوع، يستدعي أول لقاء له مع منطقة مصر الجديدة.

بعد انتهاء المجموعة التي اصطحبته إلى القاهرة من زيارة الأولياء وحضور المولد بالمقطم، نزلوا في بيت صديق لأحدهم، والذي حكى لهم كيف يذهب كل عام إلى السودان ليزور (سيدي الميرغني) ويجلس مع مولانا (فخر الدين) مثيرًا استحسان وغيره ضيوفه. بعدها تبادلوا الحكايات والنوادر عن كرامات وبركات والدح، كي يزداد حرجًا وخجلًا حتى خرج مندفعًا فجأة من الشقة في الدور السابع القابعة في ميدان (ابن سندر) بمصر الجديدة، ليعود فورًا إلى محافظته.

وهو مستغرق في ذكرياته تلك، وصل إلى منطقة (صلاح الدين) ولم يكذب عبرها حتى وجد على يمينه شيري تقف أمام محل ذهب. هذه المرة بدون ابنها الصغير. في البداية انتقل إلى الناحية الأخرى من الشارع لكنه عدل عن قراره ورجع ناحيتها بعدما رأى أنها بمفردها بالفعل. ظل واقفًا خلفها حتى تلتفت، لكنها بقت تتمعن في المعروضات التي تشع صفارًا وبياضًا خلف زجاج الفاترينة. شعر أن وقوفه مدة طويلة هكذا سوف يثير الانتباه والشك فنادى عليها بصوت خفيض: «شيرين». لم تستجب فنادى مرة أخرى بصوت أعلى: «شيرين»، ثم طرق أصابعه بلطف على كتفها فالتفتت. بدا على وجهها الدهشة والتساؤل، فعرف -في إحراج مزوج بوخزة صغيرة- أنها لا تذكره:

«شيرين، أنا ح.»

ابتسمت ابتسامة واسعة وقالت بطريقة غريبة وإن كانت أيضًا مألوفة على أذنه:

«آآآه. ح. إزيك يا واءااااا!»

بعد اندفاعها الأول تراجعت في خجل ونظرت للأرض ثم رفعت عينها إلى وجهه تتطلع إليه:

«إزيك وإزي طنط وأخوك عُمر!»

رد بأنهم جميعًا بخير وأن أخاه مسافر، ثم سألها ماذا تفعل هنا، فقالت إنها تزوجت ولديها ابن عنده ثلاثة أعوام وزوجها أيضًا مسافر في عمل بالخارج. وجدح. في نفسه الشجاعة أن يعرض عليها أن تأتي وتشرب معه شيئًا في أي مكان قريب في الكوربة. وافقت على الفور قائلة بصوت خفيض وهي تقطب أنفها إنها تحتاج بالفعل إلى الجلوس سريعًا لأن الحذاء ضيق وبكعب عالٍ.

قرر أن يذهب إلى مكان شيك وغالٍ فعطف بها إلى بار (ذا جاردن). إذا اعترضت سيقول ليس من الضروري شرب كحوليات. بعد تمشية خمس عشرة دقيقة متهادية، تشاركها فيها ذكريات قديمة عامة وأخبارًا عن شخصيات مشتركة يعرفونها، وصلًا للمكان الذي يقف على بوابته مسئول ومعه بودي جارد.

نظر مسئول الدخول إلى شيرين المحجبة في ريبة وسأل إذا قاما بالحجز

مسبقاً. نفى ح.. فأبلغهما الرجل أنه لا يستطيع إدخالهما قبل إتمام الـ«باك» جراوند تشيك». وعندما سأله عما يعنيه، قال إن معناه الدخول على بروفايل الفيسبوك ليعرفوا من هما. زعق ح. وأمره أن ينادي المدير. جاء المدير بالفعل على صوته فزعق فيه ح. وقال له ما هذا الكلام الفارغ ألا يعرفون من هو! رد المدير في تواضع مدروس بابتسامة: «مخنا عايزين نعرف حضرتك مين». أشار ح. تجاه ميدان الإسماعيلية وقال: «أنا ناشر محترم هنا ودي خطيبي»، ولدهشته مرة أخرى في أقل من نصف ساعة وافق المدير على دخولهما.

اختار ح. الساحة المفتوحة التي تطل على الشارع الرئيسي، لكنه ندم سريعاً على اختياره حين شعر أن ركاب العربات والمارين في الشارع يمشون بجانب طاولتهما، بل إنه يسمع أحاديث ودردشات الجالسين على محطة الأتوبيس وحوارات سائقين الميكروباصات الخشنة والعالية أمام ناصية (درينكيز). حكّت له شيري أمام زجاجة البيرة، وكوب الفراولة أمامه، عن زواجها بمحاسب يعمل في شركة قانونية بالخليج، وعن عنفه معها بجانب بخله وجفائه، وكيف أنها نزلت مصر وقامت باستئجار شقة في (الخليفة المأمون) بعيداً عن صلف أبيها وسيطرته ولوم أمها ونكدها ليل نهار. أما هو، فبدلاً من أن يحكي لها بدوره عما فعله في حياته، وبدلاً من أن يمارس تفنجه وترفعه الذكوري الذي يعتبره جوهر سحره الخاص مع الإناث، وجد نفسه يقول إنه لا يزال يحبها لكنه لا يقبل على نفسه اقتحام حياة امرأة متزوجة، ثم أعلن في نهاية جملة السريعة المتتالية خضوعه التام: «شوفي الصبح إيه وأنا موافق عليه». صمتت لفترة طويلة شعر خلالها

بالإحراج، قطعته لحسن الحظ قائلة بهدوء وهي تثبت عينيها في عينيه: «أنا معاك مش مع الصبح»، وابتسمت.

فور إعلانها الموحى هذا، وجد أمامه إسماعيل وبجانبه عصام. لم يكن يعرف عصام لكن يعرف شكله من الفيسبوك. سلّم عليه إسماعيل وعرفه بعصام الذي ألقى التحية بأدب وحياء شديد وابتسامة ودودة وهنّاء على الدار الجديدة. قال إسماعيل نصف مازح إنه يعرف أن سبب فتح الدار هو توفير وكرّ للدعارة وأنه سيفضحه بالكتب التافهة التي ينشرها. نظر ح. إلى شيري ثم عاد إلى إسماعيل ليقول:

«أولاً أنا منشرتش حاجة أصلاً عشان تبقى تافهة أو عميقة... ثانياً أنت مال أمك لو فاتحها وكر ولا زاوية».

ضحك إسماعيل متفاجئاً من ردة الفعل وهو يمسك بذراع عصام مثنيّاً عليه، ثم بادر سريعاً بتهدئة وقع كلامه:

«لا لا أنا بهرج معاك والله ماتزعلش، محنا كلنا تافهين أصلاً وياريت مصر كلها تبقا أوكارهاهاهاها».

ردح. ببرود:

«وهو إحنا أصحاب عشان تهزر معايا؟»

اعتذر إسماعيل مرة أخرى واعترف له إنه «شارب شوية»، ثم دخلا إلى المكان المغلق وعصام يكتب شيئاً بأصابع نحيلة متوترة بسرعة شديدة،

وإسماعيل يتحدث إليه بغضب ووجهه مخضب بالحمرة والاستنكار.
هزح. رأسه برضا من استعراضه الذكوري الناجح الذي قام به للتو
وقال لشيري بثقة: «خلاص إنتي تيجي تعيشي معايا إنتي وابنك» وقام
وأخذها من ذراعها ليدفع الحساب، ثم خرج من المكان بعد أن رمى المسئول
والبودي جارد على الباب بنظرة احتقار من أعلى لأسفل.

المُصَيِّف

«ألو».

«أنا هانتحر كمان ساعة».

«اشمعنى ساعة... وراك شغل؟»

«هاكتب الورقة».

«هاكتب ورقة في ساعة؟!»

أغلق ميزو الهاتف دون رد. أكمل م. سيره صوب الكوربة ليقابل سنا. من صورها وتحديثاتها وتعليقاتها على الانترنت توقع أنها في بداية الثلاثينات. كانت دائمة التعليق عنده. حين طلب منها في ضربة عشوائية ملاقاته في مصر الجديدة فوجئ بموافقتها.

وصل م. إلى مقهى ومطعم الأمتريون وجلس يشرب فنجان قهوة ويدخن في انتظارها. لم تتأخر كثيراً. قصيرة القامة كطفلة، يجمع وجهها بين ملامح صبيّة وسيدة بالغة بشكل عجيب. سلّمت عليه ثم جلست بارتباك وأخذت تهز رجلها وهي لا تزال تحمل حقيبتها «الكروس» على حجرها. عزم عليها بسيجارة فترددت ثم أشعلها لها وأخذت تنفخ وتسعل. سألتها عن عمرها فقالت «سبعثاشر».

قرر م. محبطاً أن يعتبر الموعد مجرد معرفة شخص جديد. لم تخيب سنا توقعه؛ كانت شخصية غريبة تتحدث بطريقة تبدو دوماً أكبر من سنّها. حكّت له أنها كانت في علاقة مفتوحة بشخص يكبرها بسبع سنوات لكنها انفصلت عنه لأنه أخفى عنها أنه كان ينام مع صديقتها، سألتها لم تقرر الانفصال والعلاقة مفتوحة بالأساس، فقالت له إنها لم تعترض على نومها معها لكنها ابتعدت لأنهما أخفيا عنها الأمر. سألتها إذا قد نامت معه، قالت ببساطة: «لا، أنا منمّتش مع حد قبل كده.. بس أنا مش فيرجن».

استفسر م. عن حل اللغز فقالت إنها فتحت نفسها بإصبعها عندما بلغت الثالثة عشر. لم يعرف إذا كان يشعر بالاشمئزاز أم الإعجاب فقرّر أن يسألها عن السبب. جاوبت أنها رأت غشاء البكارة شيئاً سخيفاً ليس له لزوم. فكّر قليلاً واعترف أنه مرتبك من عنف الفعل في هذا السن الصغير، لكنه يحترم شجاعة القرار والتنفيذ. سألتها هي بدورها عن علاقته بواحدة لها اسم أجنبي. ضحك وقال: «إيما زونز؟.. آه، أنا وإيما انفصلنا بشكل

حضاري وهي قتلت نفسها». ضيقت عينيها في عدم فهم للدعابة وقالت مستسلمة: «ماعلينا!». قال لها إنه في فترة من حياته كان يستخدم نفس اللازمة في الكلام، «ماعلينا»، ثم غيّرَها إلى «مش عارف»، سألته ماذا يستخدم الآن، فقال لها «مش عارف» فضحكا معًا.

في هذه اللحظة لم يَرَم. مانعًا أن يكون هناك شيء بينهما. وهو يفكر في ذلك قالت إنها ينبغي أن تعود إلى البيت حتى تتجنب غضب أهلها، رغم أن الساعة لم تتجاوز الرابعة، ومشت دون حتى أن تعرض دفع حسابها. امتعض بشدة، لكنه عزى ذلك التصرف إلى صغر سنّها.

دفع م. للجرسون مبلغًا فلكيًا بالنسبة لمستوى المكان المتواضع الذي يعتمد على نوستالجيا هليوبوليسية يأتي الزبائن على إثرها لأنها معلم من معالم طفولتهم حين كانوا يأتون مع عائلاتهم في الويك-إند ليأكلوا الشاورمة والبرجر في ناصية الهواء المفتوح ويشربوا المانجة بينما يشرب ذووهم البيرة.

كان سيدفع لها على أية حال، لكنه أراد أن يوضح أنه قد عزمها. تراجع عن تفكيره هذا كله حين خرج من المكان ووجدها تركب التاكسي بجانب السائق وهي مرتدية حقيبتها على ظهرها كطفلة صغيرة.

تحرك التاكسي وشعر بهاتفه يرن. رد لسمع صوت صديقه ميّ:

«ألو»

«تفتكر أنا هانتحر؟»

«انتحار إيه يا بت بلاش عبط أمال. أنا هاقلق على مين ولا مين بس..
قاعدين في أرابيز بعض بإذن الله».

«إديني سبب واحد إني ماموتش نفسي».

«بسيطة، عشان أنا بحبك وهازعل فشخ لو عملتي حاجة في نفسك».

«يعني إنت تمام إني أفضل عايشة تعيسة طول حياتي عشان خاطر إنت
ماتزعلش إني مش موجودة؟»

كان م. مشغولاً بصب الرمل الأصفر الناعم في دلو صغير بجاروف
بلاستيكي أحمر اللون، قابلاً تحت شمسية ملونة ورجلاه يحيطان كومة
الرمال. في مقابله حوض مائي منفوخ على شكل سلحفاة، يعوم فيه ح.
على الطريقة الكلابي وحول وسطه بطّة صفراء منقطة. كشافات كبيرة تملأ
المكان بالنور الأبيض الناصع، بينما تستلقي المانيكان «جيني» بجانب م.
عارية الصدر، على رأسها نظارة شمس سوداء وكاب وردّي، تستريح مجلة
موضة أجنبية على بطنها، وبالأسفل ترتدي مايوه أزرق كاشف.

سأل م. ح. لم يشعر بتلك الحساسية الشديدة من موضوع والده، فتوقف
ح. عن السباحة وبصق في المياه. شتمه م. فاعتذر ح. قائلاً إن المياه دخلت

في أنفه وجاوبه أخيراً:

«تخيل أصحابك في المدرسة يقولون لك مولد أبوك إمتى.. ولما مدرس جديد يبجي يقولوله أبوه ولي وعنده مولد.. كنت ببقى في نص هدومي.. مرة عيل ابن قحبة فشّار في الفسحة قالي أبويا بيقول إن أبوك يوم ما مات طار في السما والناس كلها شافته».

مدد رجليه للخلف ممسكاً بالحافة. خفض وجهه داخل الماء ثم أخرجه ليقول بعدما نفخ الماء من جانب فمه:

«عمري ما حببت الأجواء دي.. كنت دايمًا حاسس باغتراب عن الخرا ده.. يا عم الموضوع كان مهين قوي.. كل شوية حد يبصلك.. وكل شوية حد يوقفك يسألك».

سأله عمّا يتذكره أو يعرفه عن أبوه فقال إنه سمع عنه أنه كان رجلاً طيباً جداً. عمل محامياً واشتغل في الكثير من القضايا دون مقابل. وحين كان شاباً كان يلعب الكرة في فريق المدينة الأول وأصيب بالرباط الصليبي. لم يجز العملية إلا في الجيش حين دخل التجنيد، وقتها كان الرباط الصليبي لا يزال اختراعاً. أضاف أن أخاه أيضاً عنده الرباط الصليبي، وقال إن ما فهمه عن أبيه أنه كان يصدق تلك الخرافات، لكنه حاد الذكاء وغير مدّعي، ثم أشار أن لديه أكثر من 30 جواب بخط يده كتبهم لأمه. «كان مشروع أديب والله... الوحيد من العوام اللي شفته بيكتب كده».

أعجب م. بتصنيف الناس إلى كُتاب وعوام وقال لـ ح. إنه ظهر مرّة على التلفزيون. استغرب ح. وسأله متى حدث ذلك. أمسك م. الخرطوم الطويل الموصول بصنبور بانيو الحمام وضخ المياه في ظهر السلحفاة حتى تغيرت كلها تقريباً، ثم خلع قميصه الهاواي وقفز فطرطشت المياه طرطشة عظيمة في كل اتجاه ونقصت للنصف على الأقل. شخرح. بينما ضحك م. عاليًا والتقط علبة صدقيّة كانت قريبة من حافة السلحفاة وأخرج سيجارًا كبيرًا منها وطلب منه أن يشعلها له، فأبلغه أن الكبريت قد ابتل بسبب غباء أمه. رد م. «خليك فريش إحنا في رحلة»، فهدأ ح. لأنه تذكر بالفعل أنهما في رحلة.

حكى م. أنه بعد الثورة طُلب منه الظهور في قناة ثقافية لمناقشة ديوانه الشعري الأول، وذهب بالفعل حتى وصل إلى ميدان عبد المنعم رياض، لكن رجله لم تطاوعه أن يذهب إلى المبنى الكبير الضخم ذي الخازوق المتدرج إلى السماء، فضل حينها ألا يتناول المهدي ليكون ذهنه حاضرًا أثناء الحوار.

أخذ تاكسي ومسك في مقبض الباب. ضحك ثم أكمل كلامه: إنه قرر حينها في نفسه، إذا كان الاستديو في دور مرتفع سيرحل فوراً دون تفكير أو شعور بالذنب. عندما وصل وجد ممرات مصنوعة من الحواجز كثعبان ملتوٍ ذهاباً وإياباً أمام الباب، وجنوداً يرتدون أقنعة ويمسكون برشاشات آلية، فارتبك أكثر لما تخيل نفسه يجري للخارج مفزوعاً فيطلق الجنود عليه النار ظناً أنه قد وضع قبلة وسط الناس وهرب.

مع ذلك، دخل بالفعل ووجد معدّة البرنامج تنتظره على الباب. المعدّة شابة قبطية تشبه كثيرًا الصورة النمطيّة لمعدي البرامج في الأفلام والمسلسلات. سألتها لم تأخر. أراد أن يقول لها «إحمدي ربنا إني جيت»، لكنه سألها وهو يعتذر في أي دور يقع الاستديو، فقالت الدور الخامس. فكّر إذا كان الدور عاليًا أم لا؛ في الظروف الطبيعية ليس مرتفعًا لكن كونه في مكان بعيد وضخم كهذا يجعله عاليًا. كان يقاوم بشدّة هلعه ورغبته في الخروج. أخرج موبايله يعبث به بأصابع متعرّقة وهي تشير إليه أن يتبعها للمصعد.

حين انفتح باب المصعد التفتت فلم تجده بجانبها. بحثت عنه في المكان لتجده يتجه إلى خارج المبنى. نادت عليه فوضع الهاتف على أذنه وابتسم قائلاً «لحظة واحدة». انتظرت في تملل معتقدة أنه يتحدث إلى أصدقائه لكي يروه على الهواء، لكنه كان يصطنع الحديث مع لا أحد لأنه لا يستطيع دخول أي مصعد بدون تناول دوائه. كان هذا كثيرًا عليه.

يضحك م. مرّة أخرى ويزيح المياه حوله بباطن كفه. يكمل الحكاية بأنه ذهب إليها ثم عاد ليقف بعيدًا أكثر من مرة حتى صرخت فيه أن يصعد حاليًا. بدا واضحًا أنها شكت في قواه العقلية، ناظرة حولها كأنها تُشهد الناس أو ترى ردود أفعالهم على تصرفه الغريب. اعتذر بشدّة وقرر دخول المصعد وليحدث ما يحدث.

فور توقف المصعد اندفع خارجًا وهو يدفعها للجانب. نظرت له في

دهشة وانزعاج وتأكدت بشكل نهائي أنه مخبول. أما هو فوقف يرتعد ويشد في أطراف ملابسه حتى رأى سيدة خمسينية تقبل عليه يعرفها من وقت عمله في مجال التعايش الديني والاجتماعي قبل الثورة. ماما نجوى، هذا لقبها بالفعل. كانت خارجة من تسجيلها مبتسمة، ولما رآته أمامها سألتها لم يبدو شاحباً ومريضاً هكذا. رد محاولاً الابتسام إنه متوتر قليلاً فربت على كتفه وقالت إنها تعرفه وهو «قدها وقودود». هذا للحظات لكنه فرع مرة أخرى حين عرف أنه سيظهر بعد 3 دقائق. كان يفكر في العذر الذي يمكن قوله إذا مشى من مكانه فجأة وسط البث الحي، وتخيل المنظر على الشاشة وهو يمشي فجأة وحجم الفضيحة التي سيسببها.

جلس في مكانه المفترض. قال له المصور أن يرفع ظهره، رفع ظهره ثم أخفضه مرة أخرى. أشار له المحاور أن يرفع ظهره مشجعاً فرفعه مرة أخرى ثم تهاوى. فجاءت المَعْدَّة تبلغه في نفاذ صبر أن يرفع ظهره من أجل الكاميرات. ابتسم وقال لها إنه سيفعل. كان لا يستطيع الاستقامة نهائياً، بل أخذ يهز رجله في عنف شديد، فأشار له المحاور أن يهدأ ولا يقلق.

بدأ التسجيل فخرج صوته مبحوحاً وشعر كأنه انفصل عن جسده من شدة الرعب. يجاوب ببطء واختصار وهزة قدمه مستمرة والمحاور يشير له أن يرفع رأسه، وهو يهز رأسه موافقاً غير قادر على شد قامته ولو نصف بوصة.

قال م. ل. ح. إنه لا يتذكر مما حصل سوى أنه تحدث عن قصة من مجموعته

التي يكتبها ونُشرت في جريدة أدبية عن الإلحاد والإيمان، فارتبك المحاور. حاول سريعاً أن يشرح قصده بأن الملحنين أيضاً مؤمنين بمعنى آخر، وأن فهم ذلك سيساعد على التوافق المجتمعي وتطوير المجتمع والدين.

رفع م. بعض المياه في قبضته المغلقة وضغط بأصابعه السفلية كي يتبقى كنافورة صغيرة في الحوض البلاستيكي، وأكمل أنه بعد انتهاء التصوير شعر بغضب شديد من غباء إجاباته، وأن المحاور استغرب ذلك وقال إنه كان ممتازاً وأكبر من سنه، مما أغضبه حتى أكثر دون أن يعرف السبب.

المعدة القبطية المتعجلة على النزول كانت تتجاهله. سألتها أكثر من مرة عن رأيها فقالت بطريقة آلية سريعة إنها كانت حلقة جيدة. ود في سره وهي تخرج أمامه من ممرات الثعبان المتعرجة لو تحبه حتى ينكسر قلبها، في نفس اللحظة التي قرّر فيها ألا يظهر على شاشة التلفزيون مرة أخرى أبداً، بل ألا يخرج من مصر الجديدة بقيّة حياته.

علّق ح. على الحكاية بصوت محايد: «أديك بتصيّف أهو يا عم.. ولا كنت تحلم.. عشان تعرف بس إني وعدتك وإني بوفي وعدي». رش عليه م. بعض المياه بكف يده وقال: «أيوه مانتا الشمعدان يا روح أمك»، ثم استند إلى الحافة ونجح في إشعال السيجار أخيراً ونفث دخاناً ثقيلاً وهو يمد ذراعيه يسندهما على أطراف السلحفاة. صمت قليلاً يفكر. بعدها سأله بفضول: «صحيح... هو إيه إحساس واحدة أختها اغتصبتها؟»

سَنَا

على المعبد اليهودي المغلق بالشارع الجانبي كآبة الغلق؛ ترابٌ وسواد
سخم التهجير غير القسريّ. أمام الباب شُرطيان جالسان في تراخ وعلى
حوافه حروفٌ عبريّة مهيبة تمجد الرب. بعده، إذا انعطفت يميناً، تجد جامع
(التوحيد) رغم ضوء النهار مُنيراً، يجلس أمامه أصحاب المحال على كراسٍ
بلاستيكية وخشبية وتزينه آيات بحروف عربية مهيبة تمجد الرب. تستدير
مرة أخرى يميناً، لتجد كنيسة (القديس كيولوس) للروم الكاثوليك بيضاء
كبيرة على الطراز البيزنطي، تأخذ موقع الناصية، وأمامها حواجز حديدية
وكشك حراسة فارغ، منقوش عليها حروف يونانية مهيبة تمجد الرب.

على الناحية المقابلة قهوة (السوايسة) العتيقة ذات الدورين، يجلس
ح. و م. على رصيفها وصبي القهوة يشير لهما أن ينتظرا رؤية مزة قادمة؛
لحظات وتمر أوروبية تلبس بندكور وبلوزة حمالات خفيفة، وبرفتها شاب

مصري يبدي بإيماءاته الكثير من الاحترام المبالغ فيه، محاولاً التظاهر أنه لا يفكر مطلقاً في جسدها الأبيض النظيف البض.

سُميت الكوربة بهذا الاسم لأن الترام كان يأخذ منعطفاً عند هذه المنطقة حيث ينادي الكمسري «لا كورب»، قال م. هذه المعلومة لح.. وأضاف إن مصر الجديدة ليست في الأصل جزءاً من القاهرة، بل أن البارون البلجيكي إدوارد إمبان فكّر، في 1905، في إنشاء مجتمع حضري جديد وسط صحراء العباسية بعد ثكنات الجيش البريطاني، على بعد حوالي 15 كيلو متر شمال شرق القاهرة، متأثراً في ذلك بأفكار المدن الحداثيّة التي ظهرت في أوروبا على شاكلة مدينة باريس وقتها، والتي بناها بارون آخر أيضاً هو البارون هاوسمان.

يشرح م. أن المقصود في الأصل أن تصبح هليوبوليس «واحة في الصحراء» تحتوي على أكبر فندق في العالم وعلى ملعب جولف فسيح ومضمار لسباق الخيل. وأوضح أن ذلك لم يكن سهلاً، فلم يكن الأمر يقتضي نقل الماء فقط، بل ونقل التربة أيضاً. أتى إمبان بالماء المعاد تدويره من محطات كهرباء في شبرا، أما التربة فنقلها من أراض النيل الخصبة.

بالأدق، يشير م.، كان المقصود إنشاء واحتين تفصلهما منطقة صحراوية، مخططتان على هيئة نجمة قلبها كاتدرائية البازليك التي دُفن في قبوها البارون عام 1929. كان باستطاعة المرء وهو واقف في الشرفة العليا لكنيسة البازيليك أن يرى أهرام الجيزة، ولذلك سُمي الشارع الممتد حالياً من البازيليك حتى

نادي (هليوبوليس) باسم شارع الأهرام. أضاف م. أن في ذلك الوقت كان يُسمع ليلاً في تلك الحدائق صرير الجنادب، أما الآن فالجندب يلهو حرّاً في شوارع القاهرة.

قاطع ح.، ربما لأنه مل درس التاريخ هذا، وسأله لماذا لم يخضع إلى علاج لمشكلته. رد إنه بعد عام ونصف العام من العلاج بالتحليل النفسي نقلت المُحلّلة مكانها إلى الزمالك وطلبت منه استكمال العلاج هناك، فأخبرها بأدب أنه لو استطاع الذهاب إلى الزمالك مرتين أسبوعياً لحضور الجلسات فلن يحتاج حينها إلى الجلسات نفسها.

بعد ساعة كان م. في التاكسي في طريقه إلى مساكن شيراتون، ليجد سنا تتصل به وتبلغه أن درسها قد أُلغي، وهي الآن في (روكسي) وحرّة، فقرّر الرجوع.

وهما يتمشيان في الكورية عزمها على آيسكريم من (قويدر). اختارت هي نكهة القشدة بالتوت الأزرق وهو اختار النعناع بالفستق. كان كلما أعجب بفتاة وقرّر مصارحتها، يعزمها على الآيسكريم.

تحدثا عن علاقاتهما السابقة وتناقشا في معنى الحب لكل منهما. قالت سنا بطريقتها المتذكية التي تبدو فيها أكبر من سنّها: «ما فيش حاجة اسمها حب، دي حاجة الناس ألفتها عشان هما عاوزين يصدقوها».

شعرم. لأول مرة منذ مواعدها بعمرها الحقيقي، وغالبه شعور بالانزعاج وقلة الصبر. ضحك وقال يستفزها: «ياااه.. إنتي لسه هنا!» وابتسم قاصداً رسم ملامح الخبرة والحكمة على وجهه. ردت مجادلة، وسنا تحب الجدل وتشعر أنها خُلِقَتْ لأجله، أن يأتي لها بدليل على وجود شيء ما يُسمى الحب، فرد بدوره أن تجلب هي له دليلاً أنه غير موجود. أَصْرَتْ أنه من السداجة الإيمان بوجود حب أو الإيمان بأي شيء غير مادي أصلاً. أراد أن يهاجمها، لكنه ذكّر نفسه أنها لازالت صغيرة وعفوية، لم يهدأ الزمن ولا البيولوجيا ولا الوحدة بعد، فتراجع، وقال في نفسه: على العموم إن لم يكن هناك حب فهناك جنس. سألها:

«إنتي عارفه إيه أحلى من الحب؟»

«إيه؟» لحست الأيسكريم بطريقة طفولية جعلته يتردد لحظة، لكنه أكمل:

«السكس.. جميل قوي.. جربتته قبل كده؟».

كان يعرف من مقابلاتها السابقة أنها لم تنم مع أحد، لكنه كان يمهد لسؤاله بعد إجابتها بالنفي: «تحبي تجريبه..» وأضاف بشكل عشوائي «دلو قتي؟».

وقفت تدرس الأمر لحظات وهي تزيح نني عينها جانباً، ثم قالت بصوت خفيض ووجهها مليء بالدماء: «ماشى»، وابتسمت.

اتصل بح. وقال له أن ينزل فورًا من الشقة ولا يرجع حتى يكلمه.
 شخرح. وقال إنه بدأ الدخول في النوم. ألح عليه م. وقال إن هناك أحدًا
 معه ويريد الشقة ساعة على أقصى تقدير. شتمه ح. وقال إن عليه أن يتذكر
 الجميل الذي يسديه له الآن. فصاح في سعادة بصوت عالٍ «حبيبي!».

تزامن مع صيحة «حبيبي!» انفجار شديد، قفزت فيه سيارة خضراء
 زيتونية قديمة بالقرب منهما إلى أعلى في الهواء، وسط تحطّم وتدافع ما
 أمامها وخلفها من سيارات وأشياء وبشر، وسقوط واجهة (قويدر) كأنها
 قناع من الشمع.

سقطت الواجهة بالضبط على رأس سنا وحقيبتها الكروس الخلفية
 وسبعة عشر عامًا من المجادلات وتحديثات الفيسبوك الذكية والصور
 المتكررة للبروفایل التي تبدو فيها أكبر من سنّها و«ما علينا» و«القشدة
 والتوت الأزرق» و«ماشي» مخضبة بالحنّج والحُمرة.

انطلقت إنذارات السيارات المحيطة في المنطقة تعوي في عنف معًا
 كأنها خائفة مرتعبة. وهو يقف مكانه مسمّرًا رأى شاّبين على ناصية المحل
 المجاور المحطم يقول أحدهما للآخر: «يابني إسمع، هما صحيح باعونا
 في (محمد محمود) لكن هما في الآخر معانا ضد الحكم الفاشي الدكتاتوري
 السلطوي.. مش معنى إنك كنت هاتتئذي دلوقتي إنك تقرا الواقع غلط».
 فبدأ أخيرًا في السير حتى وصل إلى الشارع الرئيسي.

مُحَدَّرَات شَعْبِيَّة مِنْ أَجْلِ آلِهَةِ أَنْظَف

الشوارع خالية كمؤخرة عانس. يقف في منتصفها والمطر يهطل على رأسه والشمس تشرق في عينيه والتراب يَلُون ثيابه.

فكّر أن في هذه اللحظة يمشي شخصٌ ما بعيداً عن هنا، نائياً عن هنا، بدون خطط للرجوع، وهذا الشخص ليس هو. علّقت دمعاً بعينه فأصبح يرى الشوارع كأنها ثعابين ضخمة وراء زجاج حوض مائي، يملكه إحساسٌ غريب بأنه كبر بالفعل وما ينظر إليه ليس إلا فيافي من الأَحَات.

أدرك فجأة أن ما حدث، قد حدث في البداية ببطء إله آسيوي ثم تسارع دون توقف إلى حد العبث، وأنه غير متحصن أمامه إلا بذاكرة مثل المنخل لا يتبقى منها سوى الزرّان. أحس بغصة عميقة شاعراً بالإهانة من تأكده

أن أشياء بسيطة يمكن أن تجعل منه شخصاً سعيداً، لكن تلك الأشياء تبدو أيضاً في الوقت نفسه مستحيلة، وحين يمعن فيها، يراها تحتاج إلى كون كامل مختلف كي تحدث في بساطتها. أشياء بسيطة وفي متناول اليد لكن كأنه لا توجد يد أصلاً. شعر بنفسه عاجزاً ومشلولاً، مثل معظم الناس حوله، والأمر كله هو «من» يفعل «ماذا» كي يتعامل مع تلك الحقيقة.

نظرم. وهواء الخامسة صباحاً البارد يدخل جفونه، إلى شابين في نهاية العشرينيات يمسك أحدهما الآخر من كتفه.

يبدو على الأول التردد. يتركه وهلة فيصيح الآخر عاليًا طالبًا الرحمة والكف. يمسكه مرة أخرى بعنف متزايد. يسقط الثاني أرضاً ويبيكي ويصيح ثم يقف طالبًا الرحمة والأول لا يدري ماذا يفعل. بدا في مكانة أقل وقد وجد في نفسه في موقف يستدعي أن تكون له اليد العليا. تكررت الحركات نفسها على امتداد الشارع الطويل: يتراجع برهة ثم يرتد بعدها متحرراً من قبضة الآخر الذي يمسك به ويلكمه بغل، متأكداً أن لا أحد يشاهده في هذا الوقت المبكر. يجري الشاب فيجري الأول وراءه صارخاً بأن يقف ثم يمسكه في غضب ليتراجع مرة أخرى دون أذيته ويعيقه للحظات بذراعيه ورجليه، ثم يدرك لا جدوى ما يفعله فيتركه يسقط أرضاً، فيصيح طالباً الرحمة كمُعَذَّب.

استمر الأمر حتى ظهر من الفراغ تاكسي أبيض وأسود قديم أشار له الشاب الثاني كي يقف. بعد توقفه للحظات واقترب الشاب منه انطلق

مُسرعًا. جرى وراءه مستنجدًا بحرقة وقفز على الحقيبة الخلفية ممسكًا بحواف الزجاج والشاب الأول يجري من ورائه. التاكسي يزد سرعته والشاب لازال يصرخ طالبًا العون والرحمة. يقف السائق فجأة ثم يعود لينطلق بصرير حاد مؤرجحًا السيارة يمينة ويسرة دون جدوى لبطء السرعة، فيزار الموتور القديم بصوت عالٍ محاولًا الفكاك.

قرب نهاية الشارع يسقط الشاب أخيرًا على الأسفلت ممددًا على ظهره. يلحق به الأول. يرفعه من إبطيه ويكتفه ويحاول المشي فلا يعرف. يجرب في حيرة أوضاعًا مختلفة ليضع في النهاية رجلًا خلف كل رجل وذراعًا خلف كل ذراع فيمشيان كأنهما إنسان واحد مزدوج.

حين اختفيا عند الزاوية رأى ح. يقبل عليه وعينه لاتزالان غارقتين في بقايا النوم، ويسأله لم نزل وسط الليل وترك أشياء بالمنزل. تذكر م. أنه كتب في مكان ما أن القاهرة مدينة لا يمكن احتلالها إلا بالمخدرات أو الأدوية، فرد أنه نزل باحثًا عن مخدرات شعبية من أجل آلهة أنظف.

الانتظار

مثل كرة بأرجل صغيرة - الهيئة التي تأخذها الكثير من الأمهات المصريات - وصلت أم م. إلى الشقة. يعرف م. أنه غاضب من أمه حين يغيظه في الشارع مرآى سيدة تمشي بخطوات صغيرة وبطيئة وتحمل شنطة أو كيسًا بلاستيكيًا بألوان مطفأة.

حين دخلت من باب الشقة كانت متعبة من صعود الأدوار الثلاثة. قالت مبتسمة وهي لا تزال تنهج أن هناك شخص آخر اسمه م. أيضًا ممتلئ مثله، لكن بدرجة أقل، يعمل مهندسًا استأجر شقة فوقهم، تزوج حديثًا من فتاه تدعى إيفيت ولديه سيارة حديثة جميلة مركونة أمام العمارة. قفز م. فوق هذه الحكاية وسألها إن كان هناك أمر ما. قالت إنها فقط تطمئن عليها، كما تطلب منه جلب أخته من المطار، وأعطته مفاتيح سيارة أخته التي ترفض رفضًا تامًا أن يلمسها في الأوقات العادية. وافق م. على مضض

معتمدًا على أن ح. سيذهب معه، لكن بعد رحيل أمه اعتذر ح. عن الذهاب معه لأن لديه مشوار مهم.

في الساعة العاشرة مساءً كان يرتجف من صوت محركات الطائرات المستمر حوله، ومن حالة الانتظار والرحيل التي تملأ أجواء المطار.

نزل إلى ساحة السيارات وصعد للمرة المئة حتى يخفف من حدة توتره، وقد سيطر عليه شعورٌ غير منطقي أنه لن يستطيع الخروج من المطار أبدًا. وقف يستريح فرأى انعكاسه في البوابات الزجاجية واضعًا يديه في جيوبه فتذكر هذا الحلم المتكرر: شخصٌ على وشك الوصول من الطائرة لا يتذكر من هو، وكل مرة يصل لا يجد تذكرته، يحاول كل مرة التصرف بشكل مختلف لكن ينتهي دومًا إلى نوبة الفزع. كل مرة يتكرر المشهد نفسه لكن بتفاصيل مختلفة؛ لا خروج، دومًا على وشك الوصول، دومًا انتظار ووحدة وخوف.

تأخرت أخته ساعة كاملة في إجراءات الخروج نزل فيها وصعد من ساحة السيارات أمام الصالة مئات المرات حتى انهد من التعب وتعرق تحت جاكته الأزرق الثقيل.

وهو داخل إلى منطقة بيته القريب من المطار قال بصوتٍ عالٍ: «حمد الله ع السلامة». لكنه لم يكن يتوجه بها إلى أخته.

بعد أن صعد بحقيبة سفر أخته، نزل مرة أخرى ليرجع إلى الشقة. لاقى أباه يدخل من باب العمارة يحمل كيسًا بلاستيكيًا قديمًا، حليق الرأس ويرتدي جاكيت مضادًا للمياه بلون كاكي. بدا أقصر وأصغر حجمًا بوجه منكمش أشبه بوجه الصغار. لسبب ما شعر بالحزن الشديد.

طار هذا الشعور من رأسه فورًا حين بدأ أبوه الكلام؛ سألته إن كان يذهب للكنيسة، وأية كنيسة يذهب إليها، ودون أن يجاب قال إنه لا بد أن يُصلي، وإنه زاد في الوزن وسيموت بالقلب لأن شرايين القلب والمخ سُدت من الدهون، ثم قال، وهو يهز سبابته كأنه يهدده، ناظرًا إليه بحدّة: «أهم حاجة المحبة والطهارة وتمشي مع ربنا» ثم جز على شفته السفلى وكرر: «تمشي مع ربنا سامع!» وصاح غاضبًا فجأة: «المحبة، المحبة يابن دين الكلب».

لم يفهم م. قط كيف يتصور أبوه أن الحصول على الجنس شيء سهل لهذه الدرجة في مدينة مثل القاهرة. فهو، كما يذهب بيت شعر في قصيدة لإيليتس، أصبح قديمًا من الانتظار.

حتى الشابة اللبنانية التي سكنت مؤخرًا تحتها، في أول مقابلة معه على فنجان قهوة في المكتب قالت إنها لا تلمس الرجال -قالتها وهي تلمس يده- ولا تدخلهم شقتها -دعته لشقتها ليشرب شيئًا- وإنها محترمة لأنها من أسرة متدينة محافظة تعيش في أسبانيا، وأن أمها كاثوليكية من أصل روسي، -كان فيها شيء غير لبناني بالفعل، لكن أقرب إلى أصول يونانية- لم يحدث

بينهما شيء رغم تقاطر «الرجال» يومياً إلى شقتها، بجدول صارم، حتى أنها تعاركت مع شاب طويل القامة بذقن مخفوفة أمام مدخل العمارة لأنه أتى في غير مواعده، وهو يقول بإصرار إنه يحبها ويريدها فقط أن تسمعه.

كل ما حدث أنها أرسلت إليه على الواتساب الساعة الثانية بعد منتصف الليل، تطلب منه الحضور سريعاً، فنزل إليها بعد أن غيّر البوكسر ووضع كيلوجراماً من العطر ليجدها تبكي ممسكة بعلبة مناديل صدفية مذهبة لأن الشاب الذي وعدّها بالزواج اتضح أنه متزوج أصلاً.

حين رجع إلى الشقة وجد ح. يتحدث مع العميلة د. حول احتمالية الانتحار. بعد انتهاء الاتصال قام ح. من مكانه وتمشّى في الغرفة جيئة وذهاباً مثل نساء إليوت، ثم قال وهو لا يزال يتحرك لـ م.: «صحيح، تعرف أن كلب جارتنا انتحر من الدور السادس».

انفجر م. من الضحك لأكثر من عشر دقائق. شعر بعدها بالذنب فصمت واختفت ملامح الضحك على وجهه. قال إنه بالطبع موقف مأساوي لكن هناك في الأمر ما يضحكه ولا يعيه بالتحديد، ثم قال إنه في الأغلب «أصحابه ولاد وسخة».

نفى ح. وقال إنهم في حِداد من وقتها وصوتوا وبكوا عليه. «الست أصلاً بصت عليه من فوق أول ما رمى نفسه وقعدت تنده عليه كثير.. دي كانت من أسوأ الحاجات اللي شفتها في حياتي». انفجر م. مرة أخرى في الضحك. فأضاف ح. متجاهلاً ضحكته أن صديقة سكندرية حكّت له

إن كلبها في الإسكندرية كان يتصرف بطريقة طبيعية، لكن منذ أن جاءت إلى القاهرة قبل شهرين وكلبها يخرج صوتًا كأنه بكاء حتى وهو نائم ساعة الفجر، ولو استيقظ يستمر في العواء مثل الذئب، وهي تحاول أن تلعب معه وتدير له الموسيقى بصوت عالٍ دون جدوى، ولو كانت نائمة يوقظها متوترًا مهتاجًا. كادم. أن يقول شيئًا تعيسًا لح. لكن قاطعه رنين الهاتف. رد:

«ألو».

«أنا من كتر الموود سوينجز بغير رأيي في أني آخذ دوا 3 مرات في اليوم مثلاً.. أنا متلخبطة وحاسة إني بفقد شخصيتي وإني شخص شفاف.. I'm no one.. عايزة أكشن يخليني بني آدم ليه شخصية، أيًا كانت إيه هي.. عموماً أنا مش هوجع دماغي، أنا أصلاً بفكر في الانتحار أكثر ما باكل، أتعشى ولا انتحر، أتعشى ولا انتحر، أتعشى أحسن.. الحاجة الي بتهون عليا إني متأكدة تماماً إني كلها كام سنة واتجنن وخلاص..»

«نفس المستشفى العنبر الي جنبني إن شاء الله.. تتجوزيني نفسياً طيب وأربيلك عقد الذنب؟.. من أول لحظة شفتك فيها وأنا حاسس بينا اعتماد مرضي..»

«بس ياض.. أنت كويس؟»

«مش عارف. ساعات بتخيل إن الحل هو إني أظبط عيال.. بس ولا فيه عيال ولا أنا شاذ..»

نظر إلى ح. بجانبه وقال بصوتٍ عالٍ:

«يا ريتني كنت شاذ يا جميل!»

حين أنهى المكالمة قال له ح.:

«فكرتني.. الأسبوع ده فيه واحد محتمل.. لو عملته هابقى سعيد لأن البت حلوة فشخ، مش لو ني المفضل بس رقيقة أوي وممكن تنكسر.. حاولت معاها مرة قبل كده بس يظهر إنها خجولة أو متعرفش يمكن كانت مصاحبة... بس اليومين دول لقيتها على الواتساب بتكلمني، أنا اندمجت معاها، وهي أعلنت صراحة إعجابها.. عرّفتها من الأول، قتلها مليش في الأماكن العامة، فهي قعدت يومين معصلجة وبعدين اتفقنا إنها هتعزمني على الغدا بس أكون مؤدب وأنا وافقت، ساعتها ربنا بيفرجها.. عزماني على بامية وفراخ يوم الثلاث الظهر».

في الساعة الرابعة صباحًا دخل عليه غرفته ثم جلس على سريره وأيقظه ليقول:

«البت طلعت مريضة نفسية، جيت أضيفها على فيسبوك وبقولها ضفتك، قالت لي أجل الخطوة دي، قتلها إزاي يعني، يعني أزورك في بيتك وأقعد معاكي ومش عايزة نبقي على الفيسبوك عند بعض؟ قالت أصل الفيسبوك للمقربين مني قوي، اللي أعرفهم من سنين».

ردم. ولا يزال النوم مسيطرًا عليه:

«ياعم تلاقي صاحبها عندها، أصل فيه ولاد معقدين فاكرين صاحباتهم
بيخونوهم يوم التلات مع طبق بامية وفراخ، ماتعرفش إنت الأمراض
اللي موجودة».

لم يلحظ ح. السخرية في إجابته وأكمل:

«الديب ميتعملش معاه كده.. السنجاب هو اللي يقبل وضع زي ده..
أنا قرفان.. نفسي أقابلها علشان بس أبصلها بصة احتقار». صمت قليلاً
وأضاف باستنكار: «أنا ذئب!».

انتقاماً منه لأنه أيقظه من النوم قال م. في عناد:

«لا مش ذئب».

«عووووووووووووو.. شُفت أنا ذئب إزاي؟»

حُظُوظ

أمام محل (جاد) الواقع في قلب ميدان (تريومف) -سابقاً- وقف ح. وم. يأكلان سندوتشات الفول والطعمية حين نادى عامل أسمر برأس صلعاء على زميله قائلاً: «أنا رايح أصلي وراجع». بعدها، نادى زميلاً آخر ليقول له أيضاً إنه ذاهب ليصلي وراجع. وحين خرج اثنان من المخزن قال لهما نفس الكلام، ولمدة خمس أو عشر دقائق أخرى أخذ يبلغ زملاءه إنه ذاهب ليصلي.

ظن ح. وم. أن العامل حريص على إبلاغ زملاءه حتى يقوموا بعمله أثناء غيابه، لكن مسئول بالمطعم خرج من الداخل وقال بعصبية شديدة: «فيه إيه يا حسين، إنت لازم تقولنا واحد واحد إنك رايح تصلي،.. محنا شايفين إنك رايح تصلي يا أخخي!». ضحك حسين ضحكة من انكشف وتردد في حسم قراره: هل يبلغ زملاء آخرين أم يذهب فوراً كي لا يغضب

المستول أكثر. زعق فيه المستول مرّة أخرى: «ماتروح يا أخى الناس كلها عرفت إنك رايح تصلي خلاص!!» ورماه بنظرة غضب ممزوجة باحتقار وهو يتعد.

لم يعرف ح. وم. وقتها أن حسين، الشاب العشريني من ميت غمر، سيكون له دور محوري في حياتهما الأسابيع التالية. لكنهما عرفا بعد لحظات أن حسين شخص محظوظ. ففور ذهابه للجامع القريب انفجرت سيارة مفخخة أمام المطعم نسفت مدخله تمامًا، وأطاحت بـ م. وح. وآخرين إلى عرض الشارع، ورافقهما، في رحلة الطيران، بقوس عالٍ، رضيع مُمزع، ليسقط في نهاية الرحلة على مسيرة تهتف بسقوط حُكم العسكر.

بعضية وقرف حاول كل من وقع عليه الطفل إزالة الدماء من ملابسه ثم ركلوه بعيدًا، ربما لأنهم ظنّوه كيس قمامة أو شيئًا عفنًا رماه أهل المنطقة عليهم، وأكملوا الهتاف بأن لا بد في يوم أن يعود النور حتى لو كان من الأجيال القادمة، وتناقش اثنان منهم حول الديموقراطية التي أتاحت لفصيل سياسي الفرصة للحكم وأن لا بد من احترام إرادة الشعب.

انفجرت قبلة أخرى تحت من يتحدث لتمزقه أشلاء وتغرق من يحدثه بالدماء ليهز رأسه في اقتناع وهو يُخرج منديلًا من جيبه يمسح به جبينه ويقول: «صحيح... خلافنا معاهم سياسي» ثم أكمل مسح الدم من جوانب وجهه وكم قميصه وأكمل الهتاف مع الجميع في حماسة.

توقف أحد أعضاء المسيرة ليتحدث بصوت جهوري مع ثلاثة أشخاص

حوله على حافة صينية الميدان قائلاً:

«أنا أكثر تحررية منك لأنني بسمح لقامعي الحرية ومجرمي الإنسانية إنهم ياخذوا فرصتهم.. وأدافع عنهم لو اتقمع قمعهم وإجرامهم.. متفكرش إني مقتنع برأيهم، أبداً... أوقات حقيقي بزعل منهم، وباخذ على خاطري فعلاً.. لكن أضحي بكل شيء عشان يستمروا في المسار اللي اختاروه بناءً على موافقتنا...».

سكت قليلاً يستمع إلى أحد الأشخاص من الثلاثة قبالة ليكمل في نبرة أكثر حماسة:

«أنا شخص عقلائي وصدري رحب وأحب مراجعة الذات، خليني أراجع نفسي.. كل حاجة قلتها أنا صح، وكل حاجة إنت قلتها غلط.. إنت شايفني متناقض عشان بناقضك، وعشان تناقضك عاميك، مش معني إني أقول الحاجة وعكسها إني متناقض، أنا متسق تماماً في إني ضدك وضد الي أنت بتشتبك معاه.. أنا بسعى للخير العام لكل وليك إنت يا غبي يا متخلف يا جاهل رغم إنك ماتستحقش».

انفجرت قبلة الثالثة كانت مخفية بين زرع الميدان أطاحت بالمتحدث ليسقط إلى جوارح. وم. في الناحية المقابلة من الشارع. كان لا يزال يتحدث وهو بلا نصف سفلي عن أن قبول الناس أو رفضهم للمسار الديمقراطي لا يهم في شيء فالناس معظمهم جهلة وأغبياء وعديمو الفهم وأهم شيء هو الإرادة الديمقراطية.

حاول ح. وم. الوقوف بصعوبة فساعدتهما حسين العامل الذي جاء مهرولاً من بعيد على وقع الانفجارات. سندهما حتى استراحا على السور نصف المتهدم للمطعم، وقال لهما إنهما يبدوان أولاد ناس وربنا يجازي أولاد الحرام، ثم أضاف في حذر إنه يعرف بيت قريب فيه مزز جامدة يستطيعن أن ينسيهما ما حدث للتو.

رفع ح. وم. رأسيهما في وقت واحد، وسألا في صوت واحد: «فعلاً؟!» هز رأسه في إيجاب مؤمناً على كلامه ببسمة حنونة فرحة كأنه يبلغ أخاه الصغير بأنه نجح في الثانوية العامة بمجموع كبير. مشيا وراءه في اتجاه ميدان (سانت فاتيما) وهما ينفضان التراب والعفرة عنهما حتى وصلوا إلى عمارة عالية قرب الميدان، يجلس رجل بجلباب أمام بوابتها. نظر لهم الرجل مستفسراً فقال حسين:

«قالوا: حرّص ولا تحوّن، وقالوا: الجزءاء من جنس العمل، وقالوا لأنيس منصور، وقالوا سلاماً، وقال المسافر في القصيدة للمسافر في القصيدة: كم تبقى من طريقك؟»

فرد الرجل السمين بجلبابه الضخم:

«طريقك أخضر».

دخل الثلاثة ووقفوا بجانب مصعد جانبي صغير الباب. سأل م. في توجس في أي دور يقع البيت، ابتسم حسين وقال له: «كُلّه تمام». سألّه

مرة ثانية فرد أيضاً: «كُله تمام». فقال له إنه لن يصعد حتى يقول في أي دور تقع الشقة، فقال: «الحداشر».. وأشار بإصبعيه بجوار بعضهما وأضاف بابتسامة: «كُله تمام». فنظر م. في يأس إلى ح. وقال له في نبرة مستسلمة: «لو عايز تطلع إنت اطلع».

ثم التفت واتجه ناحية الباب الذي دخلوا منه. فسأله حسين في استغراب:

«في إيه يا باشمهندس؟»

فرد م. وهو لا ينظر إليه:

«مبحش الأدوار العالية».

وأكمل مسيره فقال حسين في سرعة بديهة:

«طيب إيه المشكلة أنا أعرف بيت دور أول.. بس بعيد شوية».

التفت م. في اهتمام وسأله:

«بعيد فين يعني؟»

قال له:

«في الخليفة المأمون».

اقترب منه م. وسأله في اهتمام أكبر:

«ناحية العباسية يعني؟»

رد:

«لا. القبلية الثانية. ورا هاردين».

ابتسم م. ابتسامة واسعة وقال له بعفوية:

«أحبك في الله يا أخ...»

ابتسم حسين ببراءة ممتزجة بلزوجة وقال:

«أخوك حسين... بس المهم الأبيج الجامد عشان المكان اللي رايحينه دا
قطامية هاي تنس خالص!»

نظر م. إلى ح. يستفسر منه فتدخل ح. وقال:

«ياللا بينا نتحرك بسرعة طيب».

خرجوا جميعاً من العمارة، وتحادث حسين مع البواب الذي يبرز كرشه
العظيم من تحت جلبابه مهيباً بيضع كلمات لم يسمعاها.

نسرٌ على ارتفاع مُنخفض

لا يمكنك الاستمناء وأحدهم ينظر إليك. هذه حقيقة واقعة عرفها م. وح. ذلك اليوم.

أثناء ركوبهم التاكسي إلى الخليفة المأمون اندفع حسين بطريقته الحيوية في الحديث بالضحك العالي المستمر وإيقاع الكلام السريع في شتى الاتجاهات. يغمر حسين من أمامه بكثافة الحديث وسرعته فلا يعطيه فرصة للرد عليه، بل يستخدم محدثه لكي يتكلم عن نفسه وآرائه. فيسأله مثلاً محتاراً عن أمر ما، ليقاطع الإجابة وي طرح إجابة تخصه هو بحكمة ونباهة والتي يبدو من تدفقها إنه كررها كثيراً مسبقاً، ليكتشف من أمامه أنه يستخدم الأسئلة فقط كذريعة لقول ما عنده.

كان حسين قصيراً فيبدو وهو مُقبل من بعيد كمراهق في الإعدادية، خصوصاً بمشيته العجيبة النزقة. يعوِّض صغر حجمه بتضخم كاريكاتوري

في الذات. من مبالغته في الكلام لا تستطيع إلا أن تستمتع به كعرض شائق. يقول عن نفسه بلا حرج إنه عبقرى وعظيم، ساحر أبواب النساء، ثاقب النظرة السياسية ومحللًا استثنائيًا للواقع، يشير بكلتا يديه إلى نفسه قائلاً إن النساء تذوب فيه لأنه وسيم وجميل الجسد. يشرب عن كرسيه إذا وجد من أمامه أطول منه، مما يجعل م. طويل القامة أحيانًا ينزل في كرسيه ويجذب قليلًا وهو يتحدث معه كي يوفر عليه هذا المجهود.

نزل الثلاثة من التاكسي في شارع جانبي هادئ تظله الأشجار أمام فيلا ببوابة حديدية كبيرة يقف عليها حارسان ضخمان بعضلات كبيرة تحت بَرَات سوداء وساعات للاتصال الداخلي على أذانهم. تقدم حسين الثلاثة وهو لا زال بطاقم ملابس المحل، الفانلة الحمراء والبنطال الأسود والكاب الأحمر بالعلامة الصفراء الخاصة، تفرس الحارسان فيهم بتجهم مثل قاضيين مرابطين على عتبة مملكة مُحَرَّمة. وقف حسين أمام الحارس على اليمين وقال:

«لولا الجهات، لكان قلبي هدهدًا»

رد الحارس بغلظة:

«لو كان قلبك هدهدًا لتبعته» وسكت كأنه لم يتكلم.

بادره حسين هذه المرة بسؤال بطريقة من يريد أن يعرف الإجابة فعلاً:

«وكيف نقفز فوق هاوية ولسنا طائرين؟»

نظر الحارس إلى م. ثم إلى ح. وجاوبه بعد تفكير:

«نغني: من يرانا لا نراه، ومن نراه لا يرانا».

هز حسين رأسه مستحسنًا الإجابة، ونظر لهما كي يدخل معه. صاحبهم الحارس الذي يقف على اليسار للدخول وأشار بيده كي يصعدوا من سلم معين دونها كلمة.

عند دخولهم الفيلا نفسها، أشاعت مستويات الضوء الهادئة، والظل الموزع في المكان بلطف، ومساحات الفراغ المربعة بين الأثاث، الهدوء والطمأنينة في نفوسهم. زاد من هذا الشعور الهادئ ابتسامة العاملة الفلبينية البشوشة وترحيبها الرقيق بالإنجليزية كأنهم انتقلوا إلى عالم آخر.

بعد دقيقتين من الانتظار الصامت، نزلت على السلام مدام كارمن في ثياب أشبه بثياب الساحرات في أفلام البورنو. ميلفاية مشدودة القوام في بداية الخمسينات. قال حسين بصوت هامس يغازلها:

«أرى نسرًا خرافيًا، يخلق فوقنا على ارتفاع منخفض».

ضحكت مدام كارمن ضحكة رقيقة اختفت بنفس سرعة ظهورها وقالت:

«إنت هاتعملهم عليا يا ض!».

بشّت مرة أخرى في وجهي ح. وم. وسألتهما عن رأيهما في عبد الله تيدي

بير وسيد تيدي بير الحارسين على البوابة، وأخبرتتهما أنهما شقيقان لكن سيد يكبر عبد الله بسنة واحدة، وأضافت بفخر أنهما تربيا على يديها.

أَلَقْتُ مدام كارمن نظرة سريعة عليهما بالشورتات والتي-شيرتات المرسوم عليها فريق لِد زيبِلن وعبد الوهاب وقالت إنهما لذاذ قوي وزِي العسل. أَجْلَسْتُهُمَا بعد الترحيب على أريكة مُذهَّبة في الريبشِن يتناقض ذوقها الفج مع بقية المكان شديد الفخامة والتناسق، وجلست هي على كرسي مُذهب أيضًا يسارهما وبادرتهما بسؤال من أين جاءا، فردم. بأنهما من كفر عسري. ضحكت مدام كارمن وقالت بتنهد «أحلى أيام وأحلى ذكريات وأحلى ناس» ثم استرسلت في تذكرها:

«كوبري التاريخ.. نشأت نصير.. عادل عُمر.. حسين نصر حرامي الجمرِك.. بط بلقاس والحاجة زبدة الفلوس والعز.. مستر نيازكي.. ومستر كروميا.. ومستر نياز.. ومستر شتاتا... جيسكا وأيام ما كانت بتتعلق ع البلانكو.. ناتالي العُقر والتحليل الي بتعملها.. عايده بتاعت الكارنتينا الحرامية... الماوى وأم عبير وأم فايضة وأم كوثر».

كانت قد انسجمت تمامًا في تداعي الذكريات والأشخاص حتى نسيتهن تمامًا. تنحنح حسين وقال لها إن الباشوات تعرضا تَوًّا لحادث ويرغبان في نسيان ما حدث. ضربت يديها على صدرها بطريقة مسرحية وسألت بقلق واضح الافتعال:

«ليه كفاله الشر!؟»

ونظرت لهما كما تنظر طانط لأطفال أصحاب البيت. رائحة العطر النافذة منها والقوية جدًّا ثبتت عندهما هذا الإحساس. رد حسين:
«ولاد الحرام فرقعوا بمبة قدام المطعم اللي شغال فيه وهما كانوا واقفين وطاروا وقت الفرقة».

مصمصت شفيتها في استنكار وقالت:

«ولاد الأخبه.. مش عاتقين حد..»

ثم استدركت:

«بس مافيش غير واحدة بس اللي موجودة في الشفت المورنج».

فكر م. وح. داخل رأسيهما بسرعة هل من الأفضل أن يكون المرء الأول أو الثاني ومزايا كلا الدورين، هل تنتظر للنهاية كي تعرف كيف تسير الليلة أم تتجنب قرف سوائل صاحبك وتدخل في البداية. كان حسين أسرع منهما فقال:

«ماتفرجين يا ست الكل».

نادت مدام كارمن على سونا فنزلت من الطابق العلوي فتاة في التاسعة عشرة من عمرها. كانت عابسة وملامح الملل بادية عليها لكن جسدها مثالي المقاييس. قال ح.:

«على بركة الله.. أنا هاخش الأول».

ضحكت مدام كارمن ضحكة رقيقة مجلجلة ثم قالت للفتاة وهما يصعدان «خَلِّيْ بالك عليه يا سونا دول لسه واخدين بمبة في وشهم».

حين صعدا للدور الفوقي دلفا إلى اليمين واختفيا عن الأنظار، التفتت مدام كارمن إلى م. وقالت له كأنها تكلم صبيًّا صغيرًا: «أهلا وسهلاً.. أولعلك قناة الكليبات تسخن نفسك؟» وغمزت بعينها وضحكت ضحكة رقيقة أخرى. شكرها م. وقال لها إنه تمام وأخرج موبايله يعبث به. بعد عشر دقائق نادى الفتاة مدام كارمن وقالت لها أن تبعث الآخر. استغربت مدام كارمن قليلاً لكنها بثت في وجه م. وقالت: «يلا يا حبيبي».

صعد م. السلم ليجدها تقف في الممر تنتظره. أدخلته غرفة واسعة بفراش كبير وأثاث قليل مرتب جيداً. كان م. متوتراً لا يعرف ماذا يفعل. نظر إلى وجه الفتاة فوجده جامد الملامح لا يزال على عبوسه. ابتسم لها ففكت عبوسها قليلاً فتشجع وتقدم وقبلها على فمها فأغمضت عينيها ومدت لسانها تداعب لسانه. قادها إلى السرير وقبلها على خدودها ورقبتها ومسك صدرها. فكت سونا العباءة الشفافة ليكتشف م. أنها بلا ملابس داخلية، رغم أنه كان يمكن أن يدرك ذلك من خلال العباءة التي تكشف جسدها المتناسق الرياضي.

تذكر أن ح. لم يخرج من الغرفة المجاورة وتساءل في سره عما حدث، لكنه نفى من رأسه التساؤل وخلع ثيابه وداعب قضيبه ليتّم على وقوفه. مددت إليه بواقٍ فرفع كفه وقال باقتضاب «لا»، وسألها إن كان عندها

مشكلة فنفت ثم نامت على ظهرها وفتحت رجليها ونظرت إلى السقف. حاول أن يدخل فهبط ذكره كأنه مصنوع من السلوفان. دعه بسرعة وهو يشعر بالشهوة في عروقه لكنه وقف بنصف انتصاب فقط. حاول إدخاله فحدث مثل المرة السابقة. تأفف بصوت واضح فرفعت رأسها وسألته إن كان هناك مشكلة. رد إنه لا يستطيع إدخاله، وأضاف جملة بدت له سخيفة للغاية بعد أن قالها: «مش عارف في حاجة مش شغالة».

سألته دون أن تقوم من وضعها:

«بلو جوب؟»

وجد أنه اقترح سديد. قعدت على رجليها وحاولت أن تدعه كي ينتصب بالكامل لكنه كان يصمم على وقفته غير المكتملة. مديده كي يوقفه بنفسه وقال مقترحًا:

«أنا ممكن أجيبهم على صدرك وخلاص».

كان يريد أن يقول على وجهك لكنه تراجع في آخر لحظة. ردت عليه:

«صاحبك قال كده برضو..»

شعرم. فجأة أنه في مدرسة وعليه أن ينهي واجبًا دراسيًا ما حتى يتركه يرحل. دعك قضيبه في سرعة محاولاً أن يقذف لكن لم يحدث أي تقدم. قامت بنفاد صبر وقالت:

«هاروح أشوف صاحبك عمل إيه».

فور خروجها من الغرفة ارتجف جسده الممتلئ العاري في نشوة صغيرة صامتة. ورد في باله إنه وح. كانا يمارسان الاستمنااء في غرف متجاورة في نفس اللحظة، وأنه لا يمكنك الاستمنااء وأحدهم ينظر إليك، وتخيل الفتاة تضرب كفًا بكف بينهما في الممر، ففلتت منه ابتسامة.

مغامرات شبايية

صمم المعماري البلجيكي إرنست جسبار فندق (هليوبوليس) عندما بلغ من العمر ثمانية وعشرين عامًا. صممه كي يحتوي على 400 حجرة أثنوا جميعًا من خشب البلوط على طرازي لويس الرابع عشر ولويس الخامس عشر من باريس، إضافة إلى 55 شقة خاصة، وقاعات كبيرة تم فرشها بسجاد شرقي فاخر ومرايا تصل إلى السقف وعواميد ومدافع رخامية من إيطاليا وأثاث من خشب الموهاجني من لندن وقبة القصر تصل إلى ارتفاع 55 مترًا في الهواء. صمم أيضًا جسبار سكة حديدية خاصة بطول الفندق تعبر مكاتب الإدارة والمطابخ والثلاجات والمخازن وغرف العاملين.

أمام سور فندق هليوبوليس الذي تحول إلى «قصر الاتحادية»، كان م. وح. يعبران الشارع متخفين في معاطف طويلة ونظارات شمسية، على رؤوسهما قبعات دائرية وفي أفواههما غليونات أبنوسية، حين سمعا صوت فرملة وارتطام تلاهما صوت كلب يعوي بألم فظيع.

كان العواء جهورًا متواترًا يستنجد ويشتكي للآشيء. تقلصت ملامح م. وأفصح عن رغبته في الرجوع إلى البيت. أصرح. على استكمال مهمة البحث والاستكشاف الميداني. وهما يتناقشان حول الرجوع أو التقدم، عبرتهما سيدتان ترتديان معاطف طويلة بنية ونظارات شمسية مثلهما، يتحادثان بلكنة فلسطينية في صوت خفيض. السيدة الأربعينية طويلة الشعر بخصل بيضاء من الأمام قالت لصديقتها النحيلة بشكل لافت: «طيزه قمر مات بانفجار في دولة من دول أوروبا الشرقية، بس كنا نتسلى وإحنا نراقب فيه». نظرام. وح. لبعضهما وأخرج ح. بسرعة الآي-باد من حقيبته الجلدية المعلقة على كتفه وكتب تلك الجملة في حافظة الكلمات.

في نفس التوقيت تقريبًا، أمام البنك القريب على الناحية الأخرى، دارت عربة أتاري أكثر من مرة ثم توقفت أمام مدخل البنك في النهاية. كان وقوفها غريبًا لأن المكان ضيق ولا يسمح بمرور السيارات بسهولة. فور توقفها نزل أربعة رجال يرتدون ملابس مدنية وترجلوا معًا كأنهم ذاهبون للقبض على شخص ما. لما وصلوا أمام ناصية البنك، توزعوا وهم ينظرون حولهم، واحد منهم عبر الشارع ناحية ح. وم.، وواحد منهم ذهب أمام باب البنك، واحد رجع بجانب البوكس، الرابع توجه رأسًا إلى عربة شيفورليه بيضاء مقفلة من الخلف تركن في الصف الثاني. بدأ الرجل يجرب سلسلة مفاتيح ضخمة تضم مئات من المفاتيح بمتنهي البطء والحذر في الباب المجاور للسائق. الناس تروح وتجيء وسيارات تركن وأطفال يمرون مع ذويهم. لا بذلات واقية ولا خوذ ولا إخلاء ولا أي شيء.

قام ح. بسحب م. من يده لبيتعدا عن المكان. مشيا حتى وصلا إلى محطة البنزين التي تقع بين (روكسي) و(الخليفة المأمون)، ووجدا اثنين واقفين عند نهاية الرصيف المقابل عند شريط المترو القديم الخالي، يستندان إلى جذع شجرة بركب مثنية وفي يد كل واحد سيجارة، ينظران بثبات لامرأة كبيرة السن تخرج من عمارة ويتكلمان بدون النظر لبعضهما كل عشر دقائق ثم ظهرت سيارة دفع رباعي حمراء يخرج من فتحة سقفها ثلاث فتيات محجبات يرقصن ويشوحن بأيديهن على موسيقى مهرجان منتشر يتحدث عن العيشة الحرام في حرام. بعد مرور السيارة جاءت مكالمة لم.:

«أيوه يا ميزو».

«أوسخ حاجة في الدنيا إنك تقوم من النوم على وجع البطن.. أنا عملت إيه في حياتي عشان يحصل لي كل ده.. كسم حياتي.. أنا هانتحر دلوقتي.

«استنى شوية يا ميزو، نص ساعة كده، إنت لسه صغير..»

«طيب أنا هاخلى الكتاب وانتحر.. اتبضنت فعلاً..»

«الكتاب هايوزع جامد».

«للأسف.. وماحدث هايضل عليا.. هايهتموا بالكتاب ويكتبوا ريفيوها..»

«لا بالعكس دانتا هتلاقي كل ابن كلب بيرثيك.. وكل حد معدي ملوش فيها يقولك أنا معرفوش وعمرنا ماتكلمنا بس حسيت إنني أعرفه كإنه أخويا وهو كان قصده كده ونفسه في كده وليه ظلمتوا أجمل وأظهر من فينا..»

أغلق المكالمة والتفت إلى ح. ليقول:

«مازرتش بلد في حياتي.. مازرتش حتى مصر.. زرت بس مصر الجديدة مرتين.. دي المرة الثانية.. المرة الأولى كنت معدي جنب بيتي القديم.. الروايح الي طالعه من محلات الشارع خلتنني أقصر كل خطوة.. من شخص بالغ لطفل صغير في لحظات معدودة... تخيل!»

هزح. رأسه دون رد، فأكمل:

«أنا عندي معيار واحد للهزيمة.. ودا الي بصارع ضده.. إن قلبي مايتملش بالمرارة والحقد.. دي الحاجة الوحيدة الي شايفها هزيمتي بجد.. كرامتي كإنسان جوه النقطة دي تحديدًا..»

ردح..

«زنزانتني لو أضيق، أنا من ورا السجن، في العتمة باتشعلق، حتى على الدخان».

لم تمر نصف ساعة حتى كان يضع عامل القهوة (كتكوت)، التي تقع أمام مطعم (أرابياتا) في روكسي، أكواب الشاي والقهوة والماء. اندلق كوب مياه على الطاولة وكاد يغرق تاب ح..، فشخر وصاح به أن يأخذ حذره. سأله م. إن كان حدث له شيء، فأجاب عامل القهوة بسرعة: «ياعم الجهاز لو حصله حاجة كان إتني على نفسه زي تيتانك». أعجب م. بالتشبيه فسأل ح..:

«بمناسبة التاب صحيح.. إنت أخبار روايتك إيه؟»

أخذ ح. نفساً عميقاً ونظر له كأنه سيلقي بياناً:
 «والله أنا عندي مشكلة.. أنا راجل بتاع فنشينج نضيف.. أنا كوكو
 شانيل الأدب.. الجملة اللي ماتضرش العصب بفاس حامي ماعرفش
 أكتبها أو أسببها كده».

فهم م. أن ح. يغلق الحوار بهذه الجملة الاستعراضية فأنهى قهوته في
 صمت، ثم حاسب بعدها وتمشياً حتى سور حديقة (الميرلاند) يتابعان
 تحرياتها في القضية الوحيدة التي جاءت حتى الآن. نظرا حولهما يدرسان
 المكان فوجدا أناساً يترضون في تركيز مُضنٍ، وعشاقاً من مناطق شعبية
 جاءوا إلى مصر الجديدة البعيدة كي يجلسوا على السور متلاصقين ومتشاكبي
 الأيدي، وصبياناً سمر يمشون بميوعة غريبة، فهما أنهم يصطادون زبائن
 السيارات التي تتهاذى بجانب الرصيف.

اقترح م.، بعد فترة الصمت الطويلة، أن ينشر ح. روايته بالدار، فرفض
 وأبدى تصميمه على نشرها بدار كبيرة ذات اسم راسخ، وأوضح أن المشكلة
 ليست في دور النشر بل في قراره أن ينشرها بالأصل، فالرواية منتهية فعلياً
 منذ عامين لكنه لا زال متردداً، فكلما صحَّح جزءاً بزغت نقطة ضعف
 في جزء آخر، وكلما مر وقت شعر بأن المشكلة تكبر داخله بأن هناك شيئاً
 ناقصاً وغير مكتمل.

بعدما أعلن اعترافه المتأخر غير مجرى الحوار وقال إنه حلم حلمًا غريباً
 الليلة السابقة. كان م. داخل الحلم مع لينين، أو بمعنى أدق كان هو لينين،
 أو الأكثر دقة كان م. في البداية ثم تحول إلى لينين. الغريب في الحلم أن

م./ لينين قال كلامًا كان قد كتبه سابقًا في إحدى محادثاتها الممتدة ولم يكن مقتنعًا به، لكن لهيئته اللينينية المهيبة وجد أن الكلام له وجهة. بعد سرد الحلم سأله:

«إنت عارف إيه أوحش حاجة في الفلوس».

«إيه؟»

«إنها بتخلص».

استكمل م. ما كان يقوله أمام فندق هليوبوليس/ قصر الاتحادية: «المغامرات الوحيدة في مراهقتي كانت عدد السندوتشات التي بتسابق بيها مع صديق الدراسة وقتها، لفة (أضواء العالم) أو (رأفت)، وبعدين قصب (العائلات)، وبعدين مقلي (العائلات).. الحاجة اللي بحس إنها خلتنى بني آدم أحسن هي إني قريت شعر كثير في مراهقتي».

«دا عشان إنت علق».

«لا مش علق بس كنت مش ملاحق.. إنت عارف إن سرعتي في الأكل زادت وبقيت بخلص بعد ما الأطباق تنزل بوقت ميتعداش دقيقة أو دقيقتين.. ودا دايمًا بيسبب حرج للي معايا.. كمان هو إنت بروح أمك اللي مكتتش عندك حاجة مدمن عليها؟»

صمت ح. ولم يرد. كان صعبًا عليه أن ييوح باعتراف آخر كبير في نفس اليوم، لكنه حسم أمره أن يتخفف من بعض أسرارهِ في تمشية الصراحة تلك: «أنا كنت بتعالج من إدمان الترامادول والكحول.. تابعت مع دكتور

ياباني على النت.. أنا في يوم كده كتبت ورقة بلا أي سبب ولزقتها في الأوضة عندي.. كنت كاتب: أي مستقبل لك في هذا العالم يا ح..؟.. كنت كل ما أبصلها بشعر بحزن شديد.. القرار إتأخذ خطف كده..». ثم أضاف كأنه ينتقم: «أما إنت إفضل إطفح كده وخليك زي البرميل..»

تضايق م. ووضع يديه في جيوب شورته الباجي تحت المعطف وسار صامتًا. اعتذر له ح. وقال بنبرة ودودة:

«تعرف، في الحقيقة من جوايا عايز أحب وأتحب... أنا هاشتري مانجة من الراجل اللي هناك داع الناصية وأكلها لما نرجع لعلني أجد العزاء..» رد م. في إحباط:

«أنا واكل علبتين آيس كريم كبار الصبح ولسه ملقتش العزاء.. بس جالي إسهال.. أنا نفسي أبقي رفيع ورواياتي تحينة.. الرواية الضخمة بتهيمن بحجمها عشان دول بيغيرهم الأحجام زي البنت الساذجة..» «زيرة في زمن عيرة والله... بقولك إيه، أنا زهقت من أم المنطقة دي، يالا بينا نمشي..»



قضى م. بقية الأسبوع في التحضير للقاء فاتن. الفتاة التي كانت عنده من وقت طويل على حساب الفيسبوك، لكنه لم يحادثها سوى مؤخرًا، واتفق معها بالفعل على الواحد المتين.

منع نفسه من الأكل تمامًا، باستثناء شرب المياه وبعض الخيار والجزر

كلما شعر بالدوار. نزل الجيم القريب كل يوم واستخدم المشاية وأجهزة الرياضة في البيت لأول مرة. كان يحاول يائساً أن يخفض وزنه وكرشه المتدلي بسرعة حتى لا تنفر الفتاة وتهرب فتكون خيبته شديدة الوطأة.

في نفس الأثناء أبلغت شيري ح. أنها ستتقلع عنده نهاية الأسبوع. كان ينتظر كلاهما يوم الخميس دون أن يشير إلى ذلك.

ليلة الخميس عرف م. أن فاتن لن تأتي، ولن يكون هناك جنس، لأنها أصيبت بالبرد، أو هكذا ادّعت، ولن تستطيع النزول قبل شهر من محافظتها. هجم على الثلاجة يأكل كل شيء وأي شيء يقع أمامه، محاولاً ألا يفكر في الأمر. اتصل بثلاثة مطاعم معاً يطلب أشياء سافلة كان يحلم بها الأيام الماضية من الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به والمنخنقة والموقوذة والمتريدة والنطيحة وما أكل السبع. أما ح. فعرف أيضاً أن شيري ذهبت «يومين» عند أمها ولن تأتي، فأخذ علبة المناديل واللابتوب ودخل إلى غرفته صامتاً.

انهمك كلاهما فيما يفعله بسرعة وتركيز.

الجاهلين

اختفى ح. للمرة الأولى في يوم الثلاثاء.

صباح اليوم الذي اختفى فيه قام بعدة اتصالات غير مفهومة لمطاعم عديدة مختلفة؛ يتصل ويصرخ سائلاً عن سبب تأخر «الأورد»، فيسأله العامل عن اسم صاحب الأورد فيعطيه اسماً مجهولاً ويضيف: «قولي العنوان كده عشان أتأكد المرادي إنه صح» ويدون في التاب العنوان الذي يقوله العامل. كرر الأمر تسع أو عشر مرات حتى توقف في النهاية راضياً. بعدها قال لم. إنه سيقابل حسين في مطعم بيتزا الليبي في شارع عباس العقاد يعمل به بعد انهيار مطعم (جاد) ليسلمه الدولارات. لم يفهم م. شيئاً ولم يضيف ح. على كلامه غير أنه سيتواصل معه في الوقت المناسب.

اختفى ح. للمرة الأولى وفكر م. إنه يمشط الآن القاهرة بحثاً عن الواحد المثالي مستخدماً تندر وبادو ووينشات وغيرها من التطبيقات. شعر بالغيرة

والغیظ. لكنه سرعان ما انشغل بظهور فتاة جديدة في حياته بدت لطيفة على الفيسبوك؛ مثقفة جميلة بعوينات وشعر طويل منسدل تدعى مروة، حصل على موعد معها ومع صديق مشترك على قهوة (أسوان) بالكوربة.

يوم الموعد لم تظهر. ولم يظهر الصديق المشترك، بل أغلق الصديق المشترك حسابه على الفيسبوك. ولم يعتذر أي منهما.

ضرب موعدًا آخر معها. ومرة أخرى لم تظهر. لم يعلّق وصرف نظرًا. أرسلت له في اليوم التالي كي يتقابلا بالغد، فوافق دون أن يذكر شيئًا عن المواعدين السابقين. قبيل الميعاد بنصف ساعة فتح الفيسبوك ليتأكد فوجد صورتها داخل بذلة غوص مع مجموعة من أصدقائها في مدينة ذهب بسيناء.

قرر أن ينتقم بإعطائها موعدًا مضروبًا حين ترجع. أخذ معها موعدًا بالفعل بعد رجوعها في وسط البلد ولم يذهب ولم يسأل. لم تتصل أو تقل شيئًا. تحوّل الأمر معه في الأيام التالية إلى روتين؛ يتم تحديد موعدًا دون أن يتصل أحدهما أو يعتذر أو يسأل؛ فقط اتفاقات لا نهائية وتأكيد مكرر من الجانبين. حين مل من اللعبة قرر الرجوع إلى بيت عائلته.

عندما دخل غرفته شعر أنها أضيق قليلًا عن قبل. رأى قطته التي أوحشته كثيرًا تستيقظ وتنظر له كأنه شخص غريب. توقف مُسمّرًا أمامها لأنه أدرك فجأة أنه لم يسمعها قط تتكلم ولا يعرف صوتها بعد سنوات من

العشرة؛ لا يعرف فيما تفكر ولا رأيها فيه وفي الأشياء حولها، ولا ماذا تقول وكيف تشتكي في أوقات الضيق. بادلته «بسكوتة» أيضاً النظرات بعينها الصفراويين في شك لأنه أطال التحديق فيها. ثم نونوت بصوت خفيض وخفضت رقبتها لأسفل، والتفتت خارجة بخفة وحذر من الغرفة. أكمل وضع أشياءه في مكانها القديم كحقيبة تتسع بالضبط للأشياء التي توضع فيها بشكل يومي ومتكرر.

في الصباح التالي استعد كعادته القديمة للنزول إلى القهوة القريبة أمام البيت. وهو يتجه إلى باب الشقة نادته أمه وطلبت منه أن يجلب معه «كيلو بطاطس» من الخضري وأعطته عشرين جنيهاً، وهو يتحرك نادته مرة أخرى:

«استني، هاتجيب ايه؟»

«كيلو بطاطس».

«كيلو بطاطس وربع فلفل رومي وباتنين جنيه كمون».

«حاضر».

«استني، هاتجيب ايه؟»

«إيه؟»

«قلنا البطاطس والفلفل والكمون، هات معاك اتنين بصل، وكيس عدس أصفر و5 عيش اسمر و5 أبيض وربع قرن الغزال».

«حاضر»

«استني بابني، مستعجل إنت عاوز تنزل القهوة تقعد وتتمرقع وتلطعني، قلنا هانجيب إيه؟»

«حاضر.. قصدي إيه؟»

«قلنا البطاطس، والفلفل، والكمون، والبصل، وكيس العدس، والعيش أسمر وأبيض وقرن الغزال،.. خليه نص، عاوزه أبل ريتي جنب الشاي، وهات معاك كيسين ملح عشان الملح هايخلص خلاص، وفوت معلش على بتاع السمك، لو لقيت السمك طازة هات اتنين بلطي نقليهم وقوله مايحطش الخلطة عندنا مرمية في الفريزر،.. وهات معاك بقى إيه، علبة جينة صغيرة، أصغر حاجة عشان أحتك تفطر وهي نازلة بكره، استني بس، وهات عيش فينو، أيوه، باتنين جنية فينو.. لو هتاخذ منه، هات بتلاتة، وكيس شيبس كبيرة وكانز بيبس، أنا مش عاوزة.. أنا أشرب أي حاجة، لو عاوز تحبيلي هات لو مش عاوز براحتك.. لا بلاش.. لو تحبيلي معلش إزازة بيبس، مابحبش الكانز، إزازة اللي هي صغيرة دي بتلاتة دلوقتي ولا أربعة، معلش لو مش عاوز تحب ماتبحبش، بس أنا مابحبش الكانز، وهات إزازة زيت بتاع القليّة، مش كريستال، بتاع القلية، وخلاص... وعلبة مناديل لو عايز عشان المناديل خلصت، لازم مناديل عشان السمك، آه والدقيق كمان، هات كيس دقيق، وهات معاك 5 بيضات، ولو هاتفوت ناحية المقلّي عاوزه لب، آه نسيت.. وباكو الشاي، أصغر باكو شاي، أي

حاجة مش لازم الليبتون، بس هاتلي معاك لب، لو مش عاوز خلاص،
بس أنا نفسي في لب.. واتنين كتاكيتو معاك».

«حاضر».

«معاك يكفي العشرين جنيه».

«نعم؟!»

«خلاص بقى كمل من معاك وأديك بعدين، متتا الي بتاكل الأكل
كله».

«حاضر».

«استنى احنا قلنا ايه؟»

«لا مش هانعيد من الأول أكيد».

«خلاص روح وهات الحاجات، زود بس ربع لمون عشان انت
مابتحبش السمك من غير اللمون إنت وأبوك، أنا عادي ممكن ماحطش
لمون، وهات نص قوطه معاك، ماترحش عند بتاع السمك خلاص أنا
هاطلب بالتليفون».

«حاضر».

«قلتلك على البطاطس».

«أيوه قلتي».

«طيب هات شكولاته صغيرة لأختك مع الشيبس والبيس».

«لا الفلوس مش هاتكفي».

«خلاص بلاش، بس أنا نفسي في شكولاته، لو مش هايكفي بلاش، أنا مش عاوزه، بس نفسي في شكولاته صغيرة».

«حاضر».

«وهات لأختك برضو».

«حاضر».

«خلاص كده، زود بس حاجة أخيرة».

«لا مش هازود».

«أنت كده ماتحبش تعمل حاجة في البيت ولا تساعد في حاجة!»

«أنا!»

«آه إنت، ولا عاوز تجيب ولا تروح ولا تعمل، قاعد 24 ساعة في

البيت!»

«طيب قولي عاوزه تزودي إيه».

«الموز، هات كيلو موز ودا أنا هاحاسبك عليه، مافيش فلفل إسود

بس مش مشكلة نجيب أول الشهر، آه وكيسين صلصة صغيرين، ماتحبش

برطمان، کیسین صلاصہ صغیرین بس».

«حاضر، حاجة تانية؟»

«ويمكن زما انى يصالحنى بعد العداءااة».

«نعم؟»

«لا أنا بغني، ماتتأخرش، تعالي بدري عشان ألق أعمل الغدا، متقعد ليش عشر ساعات ع القهوة وإحنا نموت م الجوع، يا ريتني كنت أقدر أنزل أنا ولا الذلة والحوجة».

«حاضر..»

رجع بعد ساعة فقط لأن الت مقطوع في القهوة. كان يعمل على الرواية حين شم رائحة دخان. قام وفتح باب الشقة. وجد الجو مُعتمًا من كثرة الدخان. دخان كثيف أسود اللون.

وكأنه كان يستعد لذلك منذ الأبد، رجع إلى غرفته وارتدى الشيشب ورمى مفتاح الشقة في جيبه. صاح بهم «البيت بيولع، فيه حريق»، ثم فتح باب الشقة ونزل على السلام يحاول أن يتمالك نفسه من الفزع. كل دور يهبطه يظن إنه مصدر الحريق مقررًا أنه سيجري عبره وهو وحظه. لم يجد الحريق في الدور الثالث ولا الثاني ولا الأول. تقل المسافة بينه وبين مخرج النجاة.

رأى دخانًا وأهبة نار عملاقة تخرج من غرفة البواب تحت السلم. وصل للخارج وحاول التنفس بعد كل المحاولات الفاشلة في كتم أنفاسه خلال رحلة هروبه، والتي لم تؤدِّ إلا إلى ابتلاع المزيد من الدخان الأسود.

لحظات ووجد أخته تخرج من باب العمارة. سألها عن أمه فقالت إنها وراءها على السلم. حاول الاستكشاف خلال الدخان الكثيف الخارج من المدخل قلقًا واللحظات تمر ولا تظهر. يلتفت إلى أخته ويسألها مرة أخرى. تقول وهي تسعل المفترض إنها قادمة خلفها. في هذه اللحظة تحديدًا تذكر أحلامه المتكررة عن إنقاذ أمه من الكارثة، كارثة يختلف مضمونها في كل مرة، وتكرر بعد ذلك بدون ترتيب ثابت. شعر إن حلمه دخل حيز الواقع الآن، وجاءت اللحظة التي عليه فيها الاختيار بين الانتظار المرعب والشعور بالذنب لموت أمه بسببه، أو الدخول إلى قلب الخطر لإنقاذها، بنفس حيرة وخوف وانقباض الحلم متعدد الأشكال والسيناريوهات.

دخل مخترقًا الدخان منادياً عليها. سمعها ترد بصوت فزع من الدور الثاني أنها بخير. صعد إلى الدور الثاني وأمسك يدها ليسندها، كان على استعداد تام أن يحملها فوقه ويجري بها لو كانت مشلولة الحركة بسبب الخوف، لكنها كانت تتحرك بالفعل، نازلة درجة درجة ببطء بكلتا قدميها كما هي عاداتها، مستمرة في الصياح أنها بخير، وتقول أن أباه بالأعلى، فيقول لها إنه يستطيع التصرف، كان يصب تركيزه كله عليها. الحلم يتحقق.

حين اخترقاً حاجز الدخان السميك ونجحاً في الخروج، كان صدره

قد أغلق تمامًا. أثناء محاولاته استنشاق الهواء كي لا يموت قالت أمه إن أباه صعد إلى السطح وفي نيته القفز إلى سطح العمارة المجاورة. كان مطمئنًا عليه لأنه يعرف أنه يجيد التصرف، عليه التركيز الآن في جلب الأكسجين إلى صدره. الناس تصرخ، والسكان بملابس نومهم يقفون على أرض النجيلة في الحديقة المقابلة وعلى أسفلت الشارع. وهو يتحرك يمنة ويسرة يرى الناس يحاولون المساعدة بجرادل مياه وطففيات حريق. لا يستطيع التنفس وأمّه تصرخ. الناس تنظر لأعلى. بدايات نوبة فزع. يحاول التماسك والتحرك بعيدًا. صدره يؤلمه. الحلم يتحقق. وماذا لو أنه في حلم؟ يريد الاستيقاظ. رعبٌ. أبوه فوق السطح. يمشي على الزرع. الزرع الأخضر وهو يتحرك فوقه مشهد متكرر في كوابيسه. أنهى المهمة التي قدم إليها وجاء وقت الرحيل. لا يستطيع الاستنشاق. صدره ثقيل ويؤلمه. أنقذ أمه. تصرخ. وجهها وملابسها ملطخان بالهباب الأسود.

وصلت سيارة المطافئ. انزاح الناس وصرخوا في الجميع كي يسمحوا بمرور السيارة. قفز رجلان يرتديان بذلتهما مفكوكة الأزرار بأحذية جلدية سوداء عادية. جريا في همة رغم سنهما المتقدم، وحاولا فك أسطوانة الخرطوم دون نجاح، هرع البعض يساعدهما، وحين أخرجا الخرطوم حاول واحد منهما فتح محبس المياه دون جدوى فجاء شاب وفتحها. توقع الجميع اندفاع المياه الثمينة التي طال انتظارها. لم تخرج سوى بصة صغيرة. تبول طفل. قطرتين. ضرب المتفرجون كفوفهم وأزاحوا رقابهم في عصبية، قال لهما

أحدهم: «تحبوا نطلبلكم الإسعاف؟». وقف الرجلان بسترتهما المفتوحة على الفانيالات الداخلية وأخرجوا لاسلكي كبيرًا جدًا عتيق الطراز وقاموا بالاتصال والدخان الأسود يتصاعد من فتحات المبنى كأنه ذبيحة مهولة الحجم تحترق.

جاءت، بعد 45 دقيقة من بداية الحريق، سيارة الإطفاء الحقيقية؛ كانت سيارة أكبر وأحدث طرازًا، بها ثلاثة إطفائيين يرتدون زيهم السليم بطريقة منضبطة، كرروا الخطوات السابقة بحرفية، وبشكل ناجح هذه المرة، وانطلقت المياه أخيرًا وسط تهليل الناس.

في اليوم التالي اتصل به صديقه إتش يعزمه على حفل زواجه الصغير في فندق ماريوت على أول طريق السويس. كان هذا زواجه الثاني.

الساعة العاشرة مساءً ركب التاكسي بالفعل بعدما قال للسائق وجهته. نظر له السائق للحظات، ثم فتح إذاعة (القرآن الكريم) ورفع الصوت بدرجة غير طبيعية.

كل دقيقتين كان السائق يستغفر ويحوّل ففهم مغزى الصوت العالي. جلس صامتًا يستمع إلى التلاوة تحترق أذنه حتى وصل للمكان بعدما دفع ضعف الأجرة لأن السائق صمم على نقله على الناحية الأخرى. اتصل بإتش الذي أبلغه أنهم في القاعة أمام بار اللوبي. لما دخل وجد المكان واسعًا

وهادئاً على عكس ما توقع. عثر على إتش بشعره الطويل المعقوص وذقنه المحفوفة يرتدي عوينات جديدة ويرتدي جاكناً أبيض على جينز أسود وبجانبه صديقه بفستان أبيض بلا أكتاف وصديق ثالث نحيل بملابس خروج عادية. كان هناك نساء أفريقيات، ربما نيجيريات، يجلسن على البار بمؤخرات وصدور مهولة مثل آلهة الخصوبة. يقمن ويمشطن المكان وهن عابسات وأقرب للقرف، يسألن الجالسين ويتحدثن معهم.

قام إتش وتحدث مع اثنتين منهن بإنجليزيتة الطلقة، وضحك بصوت عالٍ وقال إن اليوم هو يوم فرحه وواصل الضحك، فنظرن له بعبوس أكبر وأشاحت واحدة منهن بيديها ونظرت أمامها إلى الساقى.

لما رجع قال لـ م. إنه طلب منهن أن يبتسما لأنه لا يريد أن يرى أحداً عابساً في يوم سعيد كهذا، وحين طلبن منه أن يعزمهن على كأسين قال إنه يوم زواجه، وأضاف بغمزة لـ م. ولا حتى في يوم آخر. «أنا بحب السامبيك زي مانتا عارف».

نصف ساعة وطلب منه إتش مصاحبته للخارج لأن المأذون قد وصل. وقف إتش وم. ينتظران في موقف السيارات لمدة عشر دقائق دون ظهور أحد. حاول إتش الاتصال في توتر وتعجل لكنهما وجدا فيزبا زيتونية اللون تدخل الموقف يقودها شخص يرتدي جلباباً رمادياً وعمّة بيضاء بجبة حمراء تحت خوذة وعلى وجهه نظارة سوداء.

أول ما نزل أشعل سيجارة وقال بالفصحى: «السلام عليكم ورحمة الله وبركاته» ثم أعقبها بنفس طويل من السيجارة وهو ما زال يرتدي الخوذة. صافح إتش ثم صافح م. وهو يقول من بين أسنانه: «إزيك يابن الوسخة».

نظر م. للرجل في اندهاش شديد. أكمل المأذون بصوت خفيض:

«معرفتنيش طبعاً لأنك فلاح وغبي وغباءك دا يا بني يسبب الوفاة المبكرة وأمراض أخرى لا يمكن الشفاء منها».

أدرك من صوته أنه ح. الذي أردف سريعاً:

«إوعي تشتمني قدام الناس أنا باشتغل مأذون.. يعني شيخ محترم».

ثم قال بصوت عالٍ لسمع إتش:

«يا ابني النصرانية دين ضال ومحرف، إني أعظك أن تكون من الجاهلين».

قطب إتش حاجبيه وقال بحدة:

«يا شيخنا لزومه إيه الطريقة دي. عيب يعني الراجل جي فرحي يتهزق!»

كان يعرف أن إتش عصبي ويمكنه ضربه، فضحك وقال إن الشيخ يهزرمعه. رد إتش أن هذا ليس هزاً رابلاً سخافة. وقال إنه لا يريد الإزادة لأنه يريد أن يتزوج هذه الليلة، لذا قرر الدخول. وهكذا ترك م. ليصطحبه للدخل.

«أنت يا ابن الأحمه هاتجوز الراجل إزاي؟»

ردح.:

«أنا عامل لحد دلوقتي 9 جوازات ومطلق 7، أنت هاتعلمني شغلي يا نصراني يا كافر».

قال له إن اتش صديقه ولن يسكت، فقال له ح. ألا يقلق فهو يستعين أحياناً بمأذون حقيقي في أوقات مثل تلك. سأله م. باستنكار أين سيجد مأذوناً الساعة الحادية عشرة، فقال له إن عقد القران أصبح فيه سواريه أيضاً وإنه نصراني حمار.

حته أن يكلم هذا المأذون بسرعة وسيبلغ هو إتش أن الشيخ لا بد أن يرحل لحالة طارئة، فزوجته في حالة ولادة متعثرة.

بعد خمس دقائق خرج م. من قاعة الفندق ثم ركب مع ح. خلفه على الفيزبا الزيتونية التي انخفضت لأسفل وارتفعت مقدمتها قليلاً في الهواء فاعترض ح.، نكزه م. أن يخرس ويتحرك.

انطلق ح. للأمام فقال له إن هذا ليس الطريق، ردح. «أنا عارف السكة.. اسكت!»

لم تمر دقيقة على الانطلاق حتى اصطدما في دوي مكتوم بعامود إنارة صغير موضوع في وسط ساحة مغلقة ومظلمة.

إعوج الإطار الأمامي وخرج دخان من الفيزبا وشرارة كهربائية. نزل م. شاخرًا وشامتًا:

«أنا قايلك يابن الوسخة إن دا مش الطريق، البوابة الناحية الثانية».

خلع ح. الخوذة وخلع العمامة والجبّة ثم هرش في رأسه وقال:

«إحنا لازم نمشي حالًا يا إلهانتفشخ».

رمى أشياءه وخلع الجلباب، وجرى مع م. بتي - شيرت أحمر بخطوط فضية وجينز أسود «سلم» إلى الطريق الرئيسي الدائري وأشارا لتاكسي أبيض مار.

ما أن ركبا حتى قال السائق: «إزيكم يا شباب». كان السائق هو نفسه حسين، مبتسمًا بلزوجته المعتادة وهو يمسك بصندوق خشبي صغير به خابور حشيش مربوط.

صاح م.: «يا أهلااااا... دا الجاهلين كلهم متجمعين هنا».

أن تعبر الشارع مُغمَض العينين

«م. أنت تخين!»

سمع م. تلك الجملة وهو يقف عارياً في صالة البيت الخالي. كانت لها طريقته في قول الحقائق.

في الحقيقة هذا أول شيء سمعه حين خلع ملابسه لأول مرّة في حياته كي يمارس الجنس قبل عامين من تخرجه. كان في بيت صديق ترك له الشقة مدة جلسته الأولى مع طبيبه النفسي: جلسة مزدوجة بمقدار ساعة ونصف الساعة، وهناك ساعة أخرى للطريق ذهاباً وعودة.

نبّه الصديق أن ينتهي من الأمر قبل رجوعه بعدما تأكد أنها ليست مومساً من الشارع. لم يكن بالشقة سرير ولا أثاث، فقط مرتبة تخييم ملقاة في منتصف الصالة الفارغة وتمثال بجعة بقوائم معدنية طويلة في الركن القريب من الشباك. لكن رأى م. أن هذا كاف تماماً.

ربما كانت هذه التجربة هي ما أنبت فكرة دار النشر / المكنة في رأس م. أثناء حواراته الممتدة مع ح. التي بدأت على الإنترنت عن طريق الصدفة بعدها بوقت قصير.

التجربة التي نقلته من العذرية للرجولة - وأفقدته حاسه التذوق لعدة أيام كعقاب لا شعوري - وانتهت وهو يقف في الشارع يشرح لم لم يقذف مرة أخرى. لتبلغه طالبة الطب النيمفو التي عرفها عبر صديق أنها هي أيضًا تأخذ دواءً مثله، لأنها تعاني من اكتئاب حاد ورغبة مزمنة في الانتحار، فيقول مشجعاً إنه أمر مقبول أن يستطيع اثنان يتعاجلان الاستمتاع رغم ما يتعاطاه، لتوافق في إحباط، لكنها لا تنسى أن تضيف: حتى ولو بهذا المقدار القليل.

ابتلع الإهانات المصوبة عليه إهانة تلو الأخرى من طريقته الغريبة في الكلام، فهي لها طريقته في قول الحقائق، وهو مرتبك لأنه لا يعرف في تلك اللحظة ما طبيعة علاقته بها؛ هي ليست صديقة ولا عشيقة ولا زميلة، بل شخصاً ما يراه للمرة الأولى ويعرف شكل عضوه الحميمي وكان بداخله منذ دقائق. ومنذ دقائق يتحادثان عارين بهدوء وتلقائية، لتمسك هي بيده وتقبلها ف يرتبك دون أن يفهم دلالة هذه الحركة، لكنه يحس بوخزة ألم لأن هذا ما كانت تفعله صديقه القديمة حين كانت تريد أن تقبله وتحجمها العُقد والتربية المحافظة، ولأنه تذكر أنه كان يريد أن تكون هي أول جسد يدخله، يلتحم تمامًا به.

قَبَلَتْ يده بنفس الطريقة بالضبط: رفعت كَفَّه بين يديها وقربتها من فمها لتقبلها. واسى نفسه أنها كانت ستشهد أداءً هزلياً، ووجيزاً أيضاً، فالأمر لم يكن سهلاً كما يبدو في فيدوهات البورنو، كأنك تقود سيارة -التي هي جسدك- للمرة الأولى.

راجع في ذهنه ما حدث حتى تلك اللحظة في الشارع. تجربة شبه ناجحة، بدون استخدام واقٍ، لأنه لم يستطع وضعه ولم تهتم هي بذلك كثيراً: تقابلا في الشارع قريباً من المكان الذي يتمشيان فيه الآن وسلما على بعضهما، كان واضحاً أنها قلقة وتريد التأكد أنه نفس الشخص الذي حادثته على النت وليس في الأمر خدعة أو فخاً.

حين اطمأنت وافقت على الصعود معه العمارة الكبيرة في شارع الثورة. استدعى مفارقة اسم الشارع وهو يصعد معها. بعد دخول المصعد والضغط على الزر رقم 5 اقترب منها وقبّلها في رقبتها فتلون وجهها ورقبتها الأبيضان بحمرة الشهوة. أكمل التقبيل بعض خفيف جعلها تتنفس بعمق وتتأوه وتعضه هي الأخرى في شفاهه ورقبته وخديه وهي تداعب صدرها بتهيج غريب.

بعد أن استقرا أخرج من حقيقته بعض علب العصير وكيسيّ مناديل صغيرين. قالت مستنكرة: «أنت فاكركنا طالعين رحلة ولا إيه.. ما فيش نبيت أو بيرة؟» ضحك في توتر وشتّم نفسه في سره.

اقترب منها يريد خلع ملابسها فدفعت يده وقالت إنها ستخلع ملابسها

بنفسها. فخلع ملابسه وبقي بالبوكرس ينتظرها. حين رآها بملابسها الداخلية، كانت الدهون في جسمها تزيدها طراوة وإغواء. نظرت إلى جسمه وعلقت على سمته مستنكرة. ودلو يرد عليها أنها ليست مارلين مونرو، لكنه تراجع كي لا يفسد الأمر خاصةً أنها تبدو مترددة.

أحاط وسطها الممتلئ واستمر في تقبيلها ولم ينسَ أن يهمس إليها كي يزيد شهوتها، واضعاً أمله في التكنيك لا الخامة. وجد نفسه يتحدث بالإنجليزية ولا يستطيع الرجوع للعربية، منعه خجله الشديد. وكانت هي أيضاً ترد عليه بالإنجليزية ثقيلة. أدرك أنه من طول مشاهدة البورن، بُرمج على الحديث الجنسي بالإنجليزية، وربما تفعل هي مثله لنفس السبب.

أبلغته في حرج بالإنجليزية أنها مبتلة تماماً، ثم طلبت أن يدير وجهه كي تخلع ملابسها الداخلية. ضحك وأخبرها أنها ستكون عارية تماماً أمامه بعد لحظات. ضحكت بدورها في حياء وأصرّت أن يدير وجهه، فأدار وجهه جزئياً خوفاً أن تلبس ثيابها مرة أخرى وتهرب. خلعت بالفعل ملابسها التحتية ووضعتها في حرص فوق ذراع الكنب.

وهو منهمك في إعدادها للدخول مجرباً أوضاعاً عديدة، فشلت كلها، سأله مستلقية على ظهرها قبل أن ترفع رجليها لم يبدو جاذباً هكذا وصامتاً، فأجاب أنه مُركّز فقط، ربما لأنها أول مرة. فور سماعها ذلك غادرتها الإثارة الشديدة، وتكلمت بنبرة عادية أقرب للاحباط: «متصورتش كده، توقعت العكس..». قالتها بالعربية.

لم يعرف هل يأخذ كلامها كمدح أو ذم. لكن حتى نهاية اللقاء تسلمت في أدائها تلك النبرة الأخوية المتفهمة. الأمر الذي أغضبه بعد ذلك حين استرجع الأمر في ذهنه مرّات عديدة.

لم يكد يدخلها حتى وجد نفسه لا يحتمل شبقها الشديد وتقلبها الملتذ العنيف كل مرة يدخل أو يخرج منها. شدّة صراخها وعلّوه جعلته يقذف وهو يترجاها بالإنجليزية أن تخفض صوتها كي لا ينفصحا.

حاول أن يدخلها مرة أخرى فرفضت وقالت إنها لا بد أن تعود للبيت، وتوصلا في النهاية لحل وسط هو مصّ سريع فشل أن يقذف به، بل تعرّق بشدّة من جسمه كله. فدفعته في يأس ثم أشارت له أن يدير وجهه لترتدي ملابسها التحتيّة الضخمة. لم يضحك هذه المرة بل ابتسم وقال إنه رآها بالفعل عارية أمامه. مع ذلك رضخ لطلبها واستدار.

بعد أن انتهيا من ارتداء ملابسهما، نزلا من العمارة وتمشيا قليلاً قبل ركوبها التاكسي. كانت لا تزال محبطة. أبلغته بطريقتها الغريبة القاسية: «أنا مضايقة إني ضيّعت المشوار النهاردة». حزن في نفسه من الوسائل الملتوية الملعونة التي تتحقق بها أمنياته وانجازاته في الحياة. أضافت وهي تنظف عويناتها المدورة بمنديل قطني ووجهه مكسّ بجمود كثيب: «الواحد زهقان.. عاوز يعمل حاجة جديدة أو ينتحر..»

«إنت ممكن تعدي الشارع وأنت مغمضة عينيك».

سَعَادَةُ مُحَطَّطَة

كتب ح. رسالة إلى العميلة د. يصف لها تقدم البحث والعثور على معلومات جديدة هامة في القضية تؤيد ما يذهبان إليه بأن هناك شبهة جنائية في الأمر. ردت فوراً تسأل عن التفاصيل.

كتب لها أن احتمال الانتحار مستبعد. لأن داليا ذهبت الليلة السابقة إلى طبيب أسنان، الذي تواصل معه وأكد بالفعل الزيارة وختم تأكيده بتساؤل «هل يعالج أسنانه من يريد أن ينتحر؟». إضافة لذلك كان هناك حجز باسمها في مطعم يدعى «لا كونكور» عن طريق بطاقة إثباتية لشخص يدعى باولو فيراري. لكنها لم تظهر بالطبع في الموعد.

في نفس الوقت تقريباً وصلت رسالة جديدة على إيميل الدار من كاتب سعودي اسمه «عبد الله البزوزي» يعرض على الدار نشر سيرته الذاتية مقابل 10 آلاف دولار على دفعتين، على أن تكون الطبعة 10 آلاف نسخة

فاخرة الطبع. قام ح. من كرسيه الدوار وأخذ يرقص في مكانه ولما استفسر م. قال إن ضربة العمر قد وصلتتهما تَوًّا.

قضيا بقية اليوم في الاحتفال والشرب والأكل. وبعد الكثير من علب البيتزا وكؤوس البراندي وماتشات الفيغا والمورتال كومبات والستريت باسكت غفيا على الأريكة.

في قلب العتمة استيقظ م. ليشرب من ثلاجة المطبخ فوجد في طريقه حصاناً كبير الحجم يقف ساكناً دون حركة أو صوت. ابتسم وربت عليه. ثم أخذ بطانية ملقاة على كرسي قريب ووضعتها عليه. فكّر أن يجلب له بعض السُّكَّر من المطبخ، لكنه تراجع لأنه حدس بأنه حين يعود لن يكون موجوداً، فضّل أن يظل معه يؤانسه في الظلام.

في اليوم التالي اخترع شخصية حسام نظمي.

حسام مهندس يعمل في شركة صيانة الشبكات بميدان (الحجاز). متزوج من نرمين الفقي. حسام ونرمين. نرمين تعمل في دبلجة أفلام السكس، ولا تنجب بسبب تكيّسات على المبايض، فكرم. أن يكون صدرها منفوخاً بالسيلكون لكنه شعر أن الأثداء الصناعية تعيسة مثل سعادة مُحُطَّط لها. والدتها، حماة حسام، وليكن اسمها سُهيّلة، تسكن قرية منهما، وكانت تعمل في السابق صحفية كبيرة في الأهرام إبدو. بدأت طانط سُهيّلة في إدمان

الحشيش عند سن الستين. عمرها الآن 65 وتتنظم على تدخين الحشيش يومياً بشكل مكثف لأنها ضمن برنامج طبي تجريبي يستكشف علاقة الحشيش بتأخير حدوث الزهايمر وضعف الذاكرة.

سبب وجود حسام نظمي في الحياة هو ضرر س.م.، ففي اليوم التالي صبحا من ألم شديد في ضرره. طيبة الأسنان في عيادات مبنى الخدمات الكنسية المقابل في إجازة، ولم يجد غير عيادة الجامع القريب. لما سُئل هناك في الاستقبال عن اسمه جاء في ذهنه بعفوية «حسام نظمي».

الطبيب شديد العصبيّة لكنه يعرف عمله. حين سأله ح. بعد ذلك لم يقل للدكتور اسمه الحقيقي، قال إنه لم يكن ليحتمل لحظة الصمت التي كانت ستلي إعلان اسمه الحقيقي. فقط عليه أن يبقى منتبهاً أن اسمه حسام حتى تنتهي جلسات المتابعة وزرع العصب وتركيب الطربوش، والتي كان يسأله فيها الدكتور عن اسمه ليبحث في أجندته الخاصة، فيتردّد ويتلعثم ليصبح فيه: «مش فاكرا اسمك!»

كونه أصبح حسام نظمي لبعض الوقت، أي وقت ذهابه لمواعيد الطبيب في الجامع، بروشتات وإيصالات مطبوع عليها هذا الاسم، جعله يدرك أن هناك فرقاً بينه وبين اسمه الفعلي، إنه مجرد اسم اعتباطي له. لا يخصه. أو كما فكر «لا يلتصق بلحمه». هو مجرد تكوين حروف تقال من قبل الآخرين كي ينتبه وكي يتم التعامل معه في الأوراق والكشوفات.

هذا الأمر أثار شعورًا بالقلق داخله لأنه أدرك أنه كائن بلا اسم. بلا هوية. وهذا الكائن ليس إلا مجموع رغبات وأفكار ووساوس. وفي تسلسل الأفكار خطر بذنه أن عاطفته المحترمة ليست إلا غطاء لعدمية بلا لون، كأنه يؤكد لنفسه أنه يجب الأشياء حتى لا ينكشف أمام نفسه أنه لا يريد شيئًا ولا يحب شيئًا، فلا يكون شيئًا. كان يراوغه هذا الشعور بالفراغ المقيت في لحظات تمتد من دقائق إلى ساعات، وتسبب له قلقًا شديدًا لا يعرف كيف يهدئه. كان الحل الذي اكتشفه مع الوقت هو الاستمناء، إلا أنه كان يتألم في بداية استثارته الذاتية لأنه كان يشعر أنه لا يريد حتى الجنس، كطفل لم يبلغ أو عجوز بردت أعضاؤه، ويفكر في وسوسة كيف سيواجه ذلك العدم بعد لعبة الاستثارة الذاتية والتفريغ التي تمتد فقط لبضع دقائق.

بعد أن استمنى وبجانبه الروشتات والإيصالات، جاءت «بسكوتة»، التي جلبها من بيته تاركًا مع أهله «بلانكو» القط الذكر الأبيض، وجلست على صدره. لا تنتقي بسكوتة مكانًا عشوائيًا بل تموضع نفسها على القلب وتتكوم في نفسها ناظرة لعينيها القريبة منها مدة لحظات ثم تغمض عينيها تدريجيًا لتنام مُصدرة تلك الحرارة من جسدها وخرير داخلي كموجات موتور صغير. لا يعرف م. لماذا تختار القلب بالذات. هل تعتبره مركز الجسم فمن المنطقي الجلوس عليه؟ أو لأنه دليل على أنه تابع لكائن حي مثلها فهو إذن المكان الصحيح؟ أو ببساطة لأن هذا المكان فيه دغدغة منتظمة تساعد على الاسترخاء ومن ثم النوم؟ المهم عنده أنها أعطت

معنى حرفياً لتعبير «مستربع على قلبي»، ومعنى حقيقياً أيضاً لـ «من القلب للقلب» لأنه كان يشعر بضربات قلبها الصغير في صدره.

لم تكد تمر بباله تلك الخواطر حتى وجدح. يدخل مندفعاً لتفزع القطعة وتقفز مبتعدة. غضب م. وصاح به: «مالك داخل عليا زي أمير لاي الأحات السبعة كده ليه؟»

«لقيتها، لقيتها يا ض.»

«هي ايه يابن الكلب؟»

لم يبلغه بها وجده لكنه قال إن هناك أمراً واحداً ليتأكد تماماً ثم يقول له كل شيء، ويبحث بالتناجح إلى العميلة الفرنسية وتنتهي أول قضية لها بنجاح ساحق.

في هذه الأثناء تقرّب م. من بنت مسيحية تدعى ميريت، تعيش مع أهلها بجانب ميدان (تريومف)، كانت تذهب لنفس كنيسة في السابق. تقابلا مرتين بعد تواصل على الفيسبوك بدأه م. بعد مرور أعوام على تلك الفترة، كنوع من التجربة العشوائية.

بديا متفاهمين. لذلك وهو ينتظرها للمرة الثالثة بعث لها رسالة على الموبايل «المكان معلقة وأنت شهاد يا جميل». أما هي فجاءت معذرة لتأخرها

وهي تضع إصبعها في أذنها ترجه بعنف وتميل برأسها لأسفل. قالت له إنها أخذت حمامًا منذ قليل وإنها لم تكن لتأتي لأن مزاجها سيئ، لكنها تشجعت نهاية الأمر ونزلت. من أول مقابلة تكلمًا معًا عن الزواج وفكرة الزواج بين المذاهب المختلفة، الزواج من نفس المذهب، الزواج وما يفعله الكهنة، الزواج المسيحي والطلاق، الزواج والإنجاب، الزواج والفردية، الزواج والتعليم، الزواج والجنس، الزواج والشذوذ، الزواج والمصاريف، الزواج والماديات، الزواج والسياسة، الزواج واختلافات الطبائع.

في المقابلة الثانية حكّت له تفصيليًا عن علاقتها بصديقها السابق القديم ثم خطبتها للآخر مدة عامين وبعض العلاقات العابرة الأخرى. قرر أنه قد وجد أخيرًا مواصفات قريبة جدًا مما يريده، ويردد لنفسه مرارًا أن عليه أن يفكر بعقله ويخطط لسعادته ولو لمرة واحدة في حياته. وهي، على كل حال، شابة لطيفة وجميلة وغير «مزيّنة» كما كان يقول دومًا على القبطيات المتزومات.

بعد المرور على المواضيع العادية والدردشة قال إنه يريد أن يفاتها في موضوع، وبدأ الكلام الذي رتبته جيدًا عن وضعه الحياتي وكيف ترك مجال الهندسة التي لم يعمل به قط، وعن أحواله المادية، وعن رغبته في الزواج، وعن مشاعره التي بدأت تنمو ناحيتها، وهي على وجهها نفس الابتسامة الثابتة. أكمل أنه وجد انسجامًا بينه وبينها ويريد الارتباط بها، فضحكت بشكل مبالغ فيه.

قالت بعد انتهائها من الضحك المطوّل إنه من اللطيف أن يفكر بها، وإنه شاب ظريف الشخصية وعقله كبير وأن بينهما توافقًا في الأفكار والآراء، لكنها لا تفكر في الزواج حاليًا. رد أنها قبل مقابلتها الأولى منذ أسبوع قابلت عريسًا له نفس اسمه، وسخرًا معًا منه، وأن هذا دليل على أنها تريد الزواج. قالت إنها لا تعرف لكنها لا تريد توريطه، فهي تخاف أن تجرحه. بدا له أن الكلام غريب على سياق المقابلتين السابقتين شبه الرسميتين، فسألها لم إذن يتقابلان كل يومين أو ثلاثة ويتبادلان كل هذه الرسائل والمكالمات التي تطول لساعات على أشياء تافهة - لم يقل لها بالطبع وصف تافهة - فقالت إنها تصورت أنها متقاربان فكريًا لذلك يمكن أن يكونا أصدقاء. رد أنه لديه العديد من الأصدقاء ولا يحتاج صديقًا جديدًا بل يحتاج شريكة. اعتذرت طالبة منه ألا يغضب، وأنها تحب أن تكون صديقة له.

حاسب وصاحبها إلى سيارتها. وهي تهبط بجانبه سلماً صغيراً تابع لسوبرماركت بجانب القهوة، ارتمت على ظهرها وانتفخت بطنها مثل بالونة كبيرة، وفردت ذراعيها ورجليها كقتيلة وهي تمسك بحقيبتها وتصرخ عاليًا: «عندي القولون العصبي يابن الكلب!».

مَسَاءات الكاري والفلفل

كان م. وح. يتشاكيان بسبب نقص المال المستمر. مع ذلك، لاحظ م. أن ح. يصرف بأريحية وبشكل متناقض؛ يحمل مثلاً هم توفير خمسة جنيهات في المشتريات ليصرف في أوردرد طعام 150 جنيهًا في نفس اليوم. يتوقف عن شرب المياه المعدنية كي يوفر 3 جنيهات، ليشتري بعدها بـ 200 جنيه أدوية برد وصندوق مياه معدنية، كأنه يوفر مالا لأن هذا هو التصرف الصحيح، ويحرص على نصيب طعامه في الثلاثة وحتى أبسط حساب مشترك بينهما، ليس عن بخل، بل انتباه ألا يأخذ أحد حقه، مما حدا بـ م. أن يلجأ إلى الترجمة كي يوفر لنفسه مالا إضافيًا.

أيضًا كي يتعامل مع شح المال تلك الفترة، أو كي يسد جوعه، أو كي يتجنب ببساطة سخرية ح.، كان ينزل إلى جاره الهندي الذي صادقه في ليالي الوحدة ليأكل عنده. يذهب للمطبخ فور دخوله ويفتح غطاء جميع

الأواني والأطباق على البوتوجاز باحثًا عما يمكن أن يأكله.

كان أچاي بشارب يجعله أكثر شبهاً بعُمر الشريف في مرحلة معينة من كهولته، يستعد لهجمات م. المتكررة بأن يُعد كميات طعام أكبر بكثير من حاجته، ويطلب منه فقط أن يترك شيئاً يأكله اليوم التالي أو ينحّي طبقاً صغيراً بسرعة تاركاً له بقية الطعام كله.

مع مرور الوقت أصبحا أصدقاء، رغم قلة المشترك بينهما ظاهرياً. وكان م. يحبه بالفعل رغم كميات الكاري والفلفل الحارق والشطة والبهارات غير المعقولة التي يرميها في الطعام كشخص مجنون يهبل التراب على جذوة نار مشتعلة، ولا يكاد يصدق أنه مع هذا كله يأكل المخللات بالشطة الحمراء والسلطة الخضراء باللبن الرائب والفلفل الحارق، بينما يشاهده والدموع والمخاط يغرقان نصف وجهه.

كعاداته مع الوحيدين كان يبذل قصارى جهده كي لا يُشعره بالوحدة. وبالمقابل يعرف أچاي مفتاحه، أو التكلفة المادية التي تحتاجها تلك الصداقة: الطعام والمزيد من الطعام. كان ذلك اتفاقاً عُرْفياً غير مُعلن بينهما.

في ذلك اليوم المشثوم رجع م. من القهوة المجاورة مباشرة عليه، صعد للدور الأول حيث يقطن أچاي ورن الجرس. كان يعرف عقلياً أنه متضايق من قصة ميريت القصيرة لكنه لا يشعر بشيء. فرد الفعل داخله يأتي بعد فترة تتفاوت من وقوع الفعل نفسه، نوع من التأجيل النفسي الذي اعتاد عليه. رن الجرس مرة أخرى ولم يجد ردّاً. ظن أن أچاي ذهب إلى السوبرماركت

القريب يشتري شيئاً، فانتظر بضع دقائق بعدما أرسل له يسأل أين هو. لا إجابة.

صعد إلى الدور الثالث ولم يجد ح. أيضاً. لا يريد أن يكون بمفرده ويشعر بالجوع، فغيّر ملابسه سريعاً بملابس البيت الفضفاضة ونزل مرة أخرى.

لدهشته لاحظ لأول مرة أن الباب غير مغلق. دفع الباب ودخل ولم يجد أحداً. دخل إلى ممر الطُّرقة فوجد أچاي مكومًا على الأرض أمام مدخل غرفة النوم، على وجهه أمارات ألم، ودم كثير يملأ صدره وبطنه.

وقف دقيقة كاملة متسمراً في مكانه وذهنه متوقف عن العمل. بعد مضي الدقيقة اقترب قليلاً ونادى عليه. خرج صوته همساً. نادى بصوت أعلى مبحوح. حاول أن يعرف إذا كان يتنفس لكن وجهه جامداً لا يتحرك، فرجع خطوات للخلف حتى وصل للصالة غير قادر على الالتفات ثم أخرج هاتفه واتصل بمي.

قال لها إن هناك مشكلة كبيرة. سألتها قلقة عما حدث، فقال إن أچاي جاره الهندي مات. واسته قائلة البقية في حياته، فقال إنه موجود هنا. لم تفهم وسألتها ماذا يعني، فقال إنه ينزف دمًا ولا يتحرك. صرخت «أحاً» وأخبرته أن يخرج حالاً من الشقة. فور سماعه ذلك، كأنه كان ينتظر إذنًا، جرى خارج الشقة وصعد قفزاً إلى شقته وأغلق الباب. سألها وهو يلهث ماذا عليه أن يفعل، فجوابته ألا يفعل شيئاً وأن يتبعد قدر الإمكان. قال إنه

لا يستطيع أن يتركه هكذا وعليه أن يتصل بالبوليس. أخذت ميّ تأحّح معترضة وتؤكد عليه ألا يفعل ذلك. «إنت مجنون.. هاتلبسها أنت!».

بقي م. مع ح. داخل الشقة منتظرًا صعودهم، لكن مرّت ساعتان دون أن يطرق أحدهم الباب. في النهاية رُن الجرس أخيرًا وبرز شخص يلبس ثيابًا مدنية يخبره أن سعادة الباشا يريد به بالأسفل. ارتبك م. رغم توقعه الأمر. ربما لأنه تصور أن الأسئلة ستطرح عليه في الشقة عنده.

خرج م. وح. معًا فقال المرسل بإشارة من يده إن الباشا يريد م. فقط بمفرده. توتر م. بشدة ونظر لح. الذي سأله ما المشكلة في تواجده معه، فرد في حدة غير متوقعة أن تلك أوامر الباشا، وعليه أن ينزل بمفرده.

فكر م. في أن يرجع إلى الشقة ويغلق الباب ويكلم أمه لتجلب له محاميًا، لكنه تمالك نفسه حتى لا يثير الشكوك فيه. فكّر أنه لو طلب منه أن يذهب للقسم سيرفض، لكنه فكر أيضًا أنه ليس في مقدوره ذلك.

نزل في النهاية ووجد باب الشقة مفتوحًا على آخره، على غير العادة، وهناك أفراد كثيرون بزي ميري وملكلي، ضخام الأجساد تنضح منهم رائحة عرق وسجائر جافة.

سمع أحدهم يقول إن المقتحم دخل من الشرفة وليس من مدخل الشقة فلم يفهم لمّ وجد الباب مواربًا وزاد ارتباكاه وتاهت الأجوبة التي حضّرها.

أشار إليهما رجل ميري، على كتفه دبابير ونسور وأشياء لا يعرف م. كيف يقرؤها، وسأل المخبر الذي يرافقه إن كان هو، فجواب المخبر أن نعم. فلف واخترق الزحام ودخل إلى الشقة وم. من ورائه.

كان المكان بالداخل أقل زحامًا. أشار له رجل بزي ملكي وشارب كبير يشرب القهوة ليجلس. جلس على الكرسي الذي تمدد عليه مرارًا ضاحكًا وآكلًا ومتكلمًا ومصغيًا ومتأملًا. نظر له الرجل طويلًا دون كلام ثم سأله هل يعرف القتل. أجب م. بالإيجاب. سأله هل كانا أصدقاء فأجاب نعم. قال له إن الجيران يقولون إنه كان يتردد كثيرًا على شقة القتل، فقال بحذر ليس كثيرًا، بل من حين إلى آخر. قال الرجل إن المشكلة كبيرة، فالرجل أجنبي وهذا يصنع الكثير من التعقيدات والحساسيات، ثم سأله إن كان للقتل أعداء، أحد الجيران في مشكلة معه مثلاً أو زميل في العمل. نفى بشدة وقال إنه شخص لطيف بدون أي عداوة مع أحد. سأله إن كان هناك بواب للعمارة فجواب أن بحد علمه لا يوجد حارس للعمارة. سأله إن كان شعر بحركة غريبة أو سمع أي أصوات غير معتادة. تظاهر م. بالتفكير للحظات ثم قال لا، لم يسمع شيئًا. شكره اللواء أو العقيد وقال له أن يوقع في دفتر كبير. وقّع بالفعل على محضر الأقوال ثم اخترق الزحام خارجًا وقلبه ينبض بعنف.

وهو يصعد السلم شعر أنه يزن أطنانًا. اندفع إلى وعيه وقوف أچاي بجواره أمام ماكينة السحب الآلي في الشارع الرئيسي تلك الليلة، رافضة

أن تُخْرِجَ نقودًا، وملامح الصدمة على وجهه التي تحولت سريعًا إلى شفقة حين رأى رقم الرصيد على الشاشة، وضحكه محرّجًا، مما جعل أچاي يصرّ على شراء شوكلاته وعصير له لما دخلا إلى السوبرماركت بعدها. شعر بغصّة هائلة في حَلَقِه.

تلك التي قَبَلته وهو في ذروة السُّكر لأنّه سكب زجاجة البيرة، شعر أنها تواسيه في محنة استدعاها طفورغاوي البيرة على سطح الزجاج. كانت قُبلة مفاجئة على خده الساخن استجلبها مرّة أخرى بسكب جرعة جديدة. في المرة الثالثة نبّهته بنبرة ذنب أنها ستعترف لصديقها. لم يحدّد هل تتحدث بجدية أم تريد فقط إبلاغه أن لها صديقًا. في غمرة عريذته ارتمى على الأرض وأخذ يصيح بصوت عال ويغني. شعر بذراعين ترفعانه وتجلسانه على الكرسي فتذكر الخادمة الفلبينية التي كانت تحمله دائمًا من الأرض إلى فوق على كتفها العظمي، أو أمه وهي ترفعه أثناء اللعب لتقبله قبلات عنيقة لها صوت عالٍ في أذنه. لوهلة شعر بالدفء في قلبه. لما جلس أخيرًا وجدها هي. حذق فيها طويلاً ثم انفجر يبكي دون انقطاع. قالت الفتاة نصف مخمورة نصف يقظة بسبب بكائه المفاجئ بلهجة جادة: «لا تهلك أَسَى وتَجَمَّل». ودّ أن يسألها إن كانت تعرف ح. لكنه تراجع وتوقف عن البكاء.

الحبُّ الأموي

وصل إمبران من الهند بنيتة إنقاذ أحد مشروعات شركته، إلا أنه ظل في مصر بقية حياته، ربما لأنه، بحسب ما أشيع، قد وقع في حب سيدة تدعى إيفيت بغدادلي.

لما وصل إلى مصر طلب مقابلة الخديوي عباس حلمي الثاني. فوجئ الخديوي أن هذا البلجيكي، الذي حصل على لقب بارون بسبب تطويره مترو باريس، يريد قطعة من الصحراء، بل عرض دفع ثمن لها. اشترى إمبران الفدان بسعر جنيه مصري واحد باسم شركته «واحة هليوبوليس». كانت المساحة التي اشتراها تبلغ 25 كيلو مربع. أي أنه اشترى أرض مصر الجديدة كلها بخمسة آلاف جنيه فقط.

كان إمبران مريضًا بالصرع، وكثيرًا ما كانت تتنابه النوبات الصرعية في الليل وهو في حديقة قصره، لتشرق عليه الشمس وهو ملقى على الأرض

العشبيّة وكلبه يقف بجانبه إلى أن يفيق، لأنه من فرط صرامته لم يكن يستطيع أحد من الخدم الاقتراب منه إلا بأمره، حتى لو كان ملقى على الأرض فاقد الوعي.

رجع ح. إلى محافظته لوجود أخيه في إجازة من الخليج. رجع م. أيضًا إلى بيته.

حين رجع وجد جدته في البيت. أرسلتها عمته لأنها شعرت باقتراب أجلها وخافت أن تموت عندها في الشقة. ولدت جدته قبل 7 سنوات من وفاة البارون إمبان. أخوها هو الشخص الوحيد في العائلة الذي له علاقة بالأدب على حد علم م.، فقد حصل على شهادة الدكتوراه في الأدب الإنجليزي عن الشاعر الإنجليزي ت. س. إليوت، الذي قابله لمدة ثلثي ساعة في مكتبه المطل على ميدان راسل الفسيح بدار (فيبر وفيبر) للنشر في لندن. أما بقية عائلته فهي سلالة من المهندسين؛ جده كان مهندسًا، وأولاده أيضًا (عمه وعمته)، حتى أبوه -خريج كلية التربية الرياضية- يعتبر نفسه مهندسًا. ورغم حصوله هو على شهادة جامعية بأنه مهندس، كلفته الكثير، فيبدو أن جينات شقيق جدته كانت قد وصلت إليه عند طريق الخطأ، وتوغلت فيه وسيطرت عليه تدريجيًا منذ أن كان مراهقًا في سن السادسة عشرة. كان يشعر دومًا بأنه على الجانب الآخر. تضخم هذا الشعور كولدٍ على أختين. كمسيحي. كقبطي. ككاثوليكي. كعلماني. كيساري. كطبقة

كصبي مراهق، ليضع مراهم ومطهرات على قرح الفراش المروعة التي تنخر جسدها. وحين لا يفعل شيئاً ينظر إليها ويتفحصها. يكف عنها لفترة قصيرة، فتضع يدها مفرودة شفافة الجلد على فمها تنظر إلى الفراغ كأنها شاردة في التفكير.

أضاف م. لنفسه تعريفاً آخر للحب: من يحب يمسح خراء من يُحبه. أبوه يمسح خراء جدته، أمه تمسح خراء القطط، أخته الكبرى تمسح خراء ابنتها الرضيعة، وهو يحاول مسح خراء نفسه.

يشتعل الغضب في كل مرة يصّر أبوه على تنفيذ رغبة أخته، تفاقت هذه المرة نوبات ثورتها، القليلة فيما مضى، وفاضت في سيل عارم.

تبدأ النوبات في العادة كحوار عادي سرعان ما يمتلئ -مهما تغيرت وتنوع الاستجابات- بالأسئلة الاستنكارية التي تصل إلى الدعاء الصارخ والشتيمة وإعلان الكفر. أو تبدأ بسيل من المهمة يتجاهله الجميع، تجوب به الأم أركان البيت شاكية الزمن والرب والزوج والعمة والجدة وكل شيء، وشاجبة التضامن مع العدو -العمة التي فرضت الوضع- والأب الشرير الذي يحتقر راحة امرأته، ليتحول المونولوج المرتفع والحاد إلى نوع من التكرار المنغم المحرق للأعصاب، يستمر في التصاعد تدريجياً حتى يصل إلى البكاء، ومن ثم معاودة الأمر كله من جديد.

بنفس الطريقة دون قدرة لأحد على وقفها. تتوقف فقط حين تنام متهالكة من الصداع الشديد والإرهاك.

كان ما يدعم تلك الانفجارات العصبية وجود م. وتأكدها أنه لن يسمح للأب أن يتعرض لها بالضرب، لذلك كانت تطلب منه الحضور الدائم في البيت، ضمانة أيضاً لوجود جمهور، خصوصاً مع انسحاب أخته خارج البيت تجنباً لكل ذلك.

أما أبوه فازداد صمّتا داخل غرفة نومه منظفاً الجدة بشكل مبالغ فيه أو في الحمام ينظف ملابسها وأشياءها، كأنه يحافظ على نفسه من الانفراط. بعض الأحيان يترجأها فقط أن تصمت أو يجاوب على سؤال رمته بسؤالها إن كانت ترضى أن تتخلى عن أمها الراحلة، لتبدأ من جديد وصلتها بحاس مشتعل عن كونه رجلاً لا يحترم راحة زوجته التي عاشته 35 عاماً رأت فيهم أشكالا وألوانا من العذاب.

لمدة أسبوع كامل، بعد رجوعه شقة (يعقوب أرتين)، استمر م. في سماع طنيناً في رأسه.

وقتما يستيقظ أو يجلس في الصلاة كان يتلفّث حوله ليجد هدوءاً لا يصدقه، هدوءاً مستمراً ولا ينقطع بدويّ انفجارات. وباستثناء محاولات أمه المتعطفة للرجوع، المغلفة بغضب وتنمر مكبوتين واتهامات بالخيانة والتخلي، شعر بالراحة والحرية.

بعد أيام قليلة بدت له المشاكل التي تستنزف طاقاته في حجمها الحقيقي، فشعر بالغبن والغضب. نبهه ح. أنه منذ رجوعه وهو يصيح ويكلم نفسه بصوت عالٍ دون أن يدرك، وردد عليه بعض ما يقوله، فيزيد اندهاش م.. وحاولت أخته -الجمهور الوحيد المتبقي، التي سارعت في البداية مثل م..، في محاولة إيقاف العرض، وأدركت سريعاً فداحة خطئها- أن ترجعه إلى البيت، لأنها غير قادرة على تحمل الوضع، الذي لم يستمر طويلاً على أية حال، فسرعان ما توفت جدته مصابة بنزلة شعبية عن عمر يناهز خمسة وتسعين عامًا.

الافتتاح

كان الحصان المربوط في شُرْفة دار (إيليتيس) محور حديث الناس في الشارع الهادئ.

حصان بنيّ كبير الحجم مربوط بحبل ليفي في السور. لا يبدو عليه الانزعاج من الحشد الكبير بالداخل الذي اكتمل حين دخل سواد الليل. كان الجميع موجودين: م. وح.، وميزو الذي نزل مصر في إجازة، ومي، وجو، ومهند وسميرة وتقى وإسماعيل، والكاتبة الأربعينية ذات عوينات القطة، وحتى الشاعرة الشتامة مطبقة الجسد بدرية، النسخة الأنثوية الأقل ذكاءً وموهبة من عصام الموسيقى.

تناهى صوت جدال عالٍ من الداخل. كانت نورهان رفيقة طلعت، صديق م.، تصيح فيه وهو يقول لها إنها تكذب عليه. لم تمض لحظات من التدخل حتى كانا يتعانقان معتردين. استدار م. وقال لح. الممسك

بسيجار سميك: «الحصان عامل شغل والله.. تعرف.. إحنا ممكن نعمل شعار الدار حصان بدل الهيلب أبو تعبان». لم ينته من الجملة حتى تصاعد صوت التراشق مرة أخرى بصورة أحد، لتخرج بعدها نورهان مسرعة. بدا على طلعت الذهول ثم بدأ في النهضة. بعدها بدقائق رجع لهما قائلاً: «أنا بعثلها شتمتها.. إزاي تعاملني كده؟! أنا مسحت أرقامها وعملت لها بلوك.. هانشوف هاتوصلي إزاي». واسوه فقال في حزم إنه بالفعل نساها وسلم عليهما وخرج. فخرجا بعده إلى البلكونة ليتحققا من الحصان فوجدا طلعت ونورهان بالأسفل في السيارة يقبلان بعضهما بنهم.

في ذلك الحين دخل الكاتب صُنع الله إبراهيم، بجسده الصغير وشعره الأبيض الهائش وشاربه الكبير، مع كاتب أجنبي سبعيني بعوينات ذات إطار عريض، فهما بعد لحظات أنه الكاتب الإسباني المعروف خوان ميّاس.

حين جلسا وسط الصالة المزدهمة بالجلوس والوقوف، لاحظ م. توتر الكاتب الإسباني، فوضع يده على كتفه وسأله في رقة بالإنجليزية إن كان بخير. رد بالايجاب وقال إنه يشعر قليلاً برهاب الأماكن المغلقة بسبب الزحام، فسأله م. إن كان يريد مهدئاً. بعد تردد وافق، وأضاف: «على سبيل الاحتياط»، ابتسم م. وقال إنه آخر إصدار، ويمكنه خلطه بالكحول. نظر الكاتب الإسباني للحبة الصغيرة في كف يده وتأملها قليلاً وقال «كيف يكون ذلك ممكناً، أن يستطيع شيء بهذا الصغر التأثير إلى هذا الحد؟». ابتسم م. ابتسامة واسعة واستأذنه ليأخذ جولة سريعة في المكان.

اقترب من موضع كنبه الحب الحمراء التي كانت تجلس عليها متربعة فتاة سمراء ممتلئة قليلاً تمسك بحقيبتها القماشية، فسمع طلاس كلام غير مفهوم. تذكر أنها صحفية تكتب بالإنجليزية تدعى زينب. اقترب منها أكثر ليسمعهما تتلو بصوت خفيض أسماء أشخاص قُتلوا على مدار السنوات الماضية. سلّم عليها وعلى غير العادة سألها عن التفجيرات المتكررة التي تحدث فأجابت بهدوء إنه جزاء عادل لمن رضي بحكم السفاحين والقتلة، ومن رضي بموت أطهر من في هذه البلد، وصاحت فجأة «مات أجمل من فينا!.. مات أطهر من فينا!» ثم أخرجت من حقيبتها ورقة كبيرة مطوية، فردتها ورفعتها وهي لا تزال متربعة على الكنبه الحمراء، كان مكتوباً عليها باللون الأحمر «بكره الثورة تقوم ما تخلي»، وبدأت من جديد تلاوة أسماء بعضها معروف والآخر لا. تجمع بعض الضيوف حولها من ضمنهم ميزو، الذي مال على م. وهمس له:

«أنا عندي طلب».

«إيه يا مان؟»

«لما أموت عايزك تكتب فيا قصيدة رثاء».

«مُعلّقة يا حب».

«مش بهزر والله».

أكمل م. تجواله فاصطدم بوجود الحصان في قلب الشقة وطلعت ونورهان

على جانبيه يداعبانه، وتجلس على ظهره جيني بباروكتها الشقراء بملابس حمراء خليعة. صرخ طلعت وهو يبرش عينيه بسرعة، وهو ما يحدث حين يتعصب أو يتوتر، بأنها عاهرة وتعرف رجالاً آخرين عليه، فزارت وهي تشد عُرف الحصان الواقف بينهما أنها لا يمكن أن تحتمل تلك الإهانات بعد الآن، وأضافت وهي تستخدم انتزاع شعر العرف بأصابعها كإيقاع للكلام:

«إنت ليه بتعقد الأمور وتدخل الشك في كل حاجة؟ إنت تفتكر أقدر أعيش في الشك دا طول الوقت؟ إنت شخص مؤذي يا طلعت ولازم تعترف بدا... أرجوك ماتكلمنيش تاني وماتبعثليش على أي حاجة.. أنا مش عاوزة أسمع صوتك ولا أشوفك.. بس مش ممكن نكمل سوا»

جاوبها طلعت وهي تستكمل نفس إيقاع نزع شعر الحصان المسكين:

«وإنت ليه مصممة تحسسيني بالذنب وإنت اللي بتبتدي المشاكل دايمًا، وعارفه إني تعبان وبتضغطي عليا، وفي الآخر تعايريني بضعفي، ما إنت ضعيفة برضو وبتيجي تشتكيلي من أقل حاجة، أنا مش ممكن أكلمك تاني ولا أبعثلك حاجة... إنت ما تعنيليش شيء نهائي، رغم إنك كل حاجة في حياتي... بس لو حياتي كده مش عاوزها... مش عاوزها..»

ثم أخرج هاتفه في عصبية وقال بتشنج:

«آدي نمرك أهـي.. بلوك لحد ما تعرفي تحترميني وتتكلمي كويس».

وجد أنه لم يفك البلوك السابق الذي وضعه منذ قليل قبل نزوله فأدخل

الهااتف في جيبه مرّة أخرى. أخذت نورهان حقيبتها وخرجت من المكان المزدهم تدفع الناس يمّنة ويسرة. تحدث طلعت بكلام سريع مندفع، وهو يرتجف مثل ورقة، لم يسمع منه م. سوى: «بس هي لازم تعرف دا... إني بحبها وإنها كل حاجة في حياتي بس مش عاوز أسمع عنها حاجة تاني».

استمر م. في جولته، فوجد مجموعة من الشباب لا يعرفهم سوى شكلاً يتناقشون في أمر قضية الكاتب صديقهم، التي شغلت الرأي العام، بسبب نشر فصل من روايته الأخيرة يحوي مشاهد جنسية في جريدة حكومية. ذهب مسرعاً إلى ح. وسأله في قلق إن كان سيُلقي القبض عليهما بسبب ما سينشرانه، فلم يردح. سوى بربما، فقال له م. إنه ليس لديه مانع أن يُسجن، لكن أن يكون السجن في مصر الجديدة، وانشغل بالتفكير إن كان عليه أن يحضر المحاكمة التي ستكون في الأغلب خارجها، أم يمكن أن يحضر المحامي موكلًا عنه. وهو يفكر في تلك المخاطر لمح طلعت ونورهان في زاوية نائية من الشقة متشابكي الأيدي وفي يد نورهان اليسرى كرة كبيرة من شعيرات الحصان الطويلة، فتذكر نيتشه ونحبيه.

الرّهان

اختفى ح. مرّة أخرى.

اختفى تمامًا وأغلق هاتفه. بعد مضي عشرة أيام دون الوصول إلى أي نتيجة. يعلم م. أنه يهدف أن يمر الوقت كيلا يحفّل عليه، الأمر الأكثر فداحة له من دفع مال الرهان.

بدأ الرهان في اليوم الذي رجع م. من الخارج إلى الشقة محبطًا، ووجد ح. أمامه يلعب بالبلاي-ستيشن ممدّدًا على الكنبه التي أصبحت سرير البيت الرسمي. قال م. في زهق واضح:

«بت الكلب عوزاني أحب فيها الأول... طب أحب فيها إزاي وأنا معرفهاش بنت العبيطة. البت دي لو ضربتها سيف يد هاخليها كائن مزدوج الهوية».

رد عليه ح. بعد أن وضع عصا التحكم جانباً:

«يا ابني أنا لو ست مستحيل أسيب فتحة في جسمي لشخص ابن
وسخة زيك».

ثم كأنه تذكر شيئاً:

«إنت لما تكون مقابل ميلفاية جميلة، جميلة جداً، وشخصية من النوع
اللي بتحبه، وتشوف في عينيها لمعة إنك لو قلبت الحوار صحوية هتنام
معها فوراً، والمفروض تاخذ الخطوة دي عشان تديك رقم تليفونها، تتصل
بيها ولا تبعت لها رسالة؟»

«رسالة..»

«طيب، أنا هادخل دخلة الكافيين بتاعتي، عمرها ما خيبت.. المشكلة
إني مابحش القهوة وبضطر في كل مقابلة أشرب قهوة بالعافية..»
«هاتها زيادة أو فرنساوي».

«أحإ أنت عايز تفقدني جاذبتي ياع*ص، بطلب قهوة من غير سكر
طبعاً.. جاذبتي ممكن تضع في حته السكر الزيادة دي.. إنت عارف
رغم أني بطبعي مدخن شرس.. لكن في حضور الأنثى لازم بعمل حركة
استعراضية كده، ألحم 3 سجائر، أولعهم من بعض لحد ما هي تقول لي
السجائر هتموتك، فأنا أغمز بعيني كده بلا مبالاة وأغير الموضوع وأكلمها
عن أي حوار تاني.. تعرف ياض يام. الميلفاية دي من الفئة A1.. هاتبقى
خبطة العمر على رأي ممثلين أفلام المقاولات».

«في حدود كام سنة؟»

«40».

«الله أكبر».

هزح. رأسه مؤمناً على كلام م. والتقط ذراع التحكم مرة أخرى ورمى له الذراع الثانية وقال:

«يالالا لعيني ماتش وأنا سخن كده».

مساءً، ذهباً معاً إلى قصر البارون من أجل استكمال التحريات في القضية.

لا يبدو القصر، الذي لا تغيب عنه الشمس في النهار، مخيفاً في الليل بأضوائه المنيرة التي تزيده جمالاً. ورغم ضخامته الخارجية فإنه صغير الحجم من الداخل، فهو يحتوي على 7 حجرات فقط مقسمة على طابقين، وقد بُني على مدار خمس سنوات وأُعلن في النهاية كأثر قومي عام 1992.

نظراً لفخامة تصميمه، الذي استلهمه الفرنسي ألكسندر مارسيل -وهو من صمم أيضاً كنيسة (البازليك) التي يشاع إنها متصلة به بسرداب سري- من مجمع معابد (الأنجكور-وات) في كامبوديا والمعابد الهندوسية في أوريسا بالهند، ظهر في السنوات الأخيرة بيزنس إقامة الأفراح بحديقته الواسعة الأمامية دون السماح بدخول المبنى نفسه.

كان م. وح. يقفان أمامه بكاميرات صغيرة يصوران القصر وهما يرتديان نظارات الشمس والمعاطف، والسيارات تمر خلفهما في (صلاح سالم) بسرعة كبيرة لتلهز أطرافها الطويلة، وم. يحكي كيف دخل مرة مع أصدقائه المراهقين في جناح الليل ورأوا الدم على الحوائط يصل إلى الأسقف العالية، مما كان له أثر كبير عليهم بسبب الضجة الإعلامية في نهاية التسعينيات عن عبدة الشيطان وحفلات الأورجي والقداسات السوداء في القبو، حيث يضحون بحيوانات ويشوهون أنفسهم ويكتبون عبارات هرطقة بدمهم على الحوائط.

نظرح. إلى الساعة وسأل م. إذا كان يريد الرجوع للشقة فرد بجدية: «إحنا خلصنا المدرسة عشان نسهر براحتنا بدون ما نكون مضطرين نروح بدري». الغريب إن ح. بدا عليه الاقتناع ورضخ لطلبه بدون تعليق.

ذهبا إلى كافيه (سوبريم) القريب في الكوربة وجلسا ينفثان الدخان من لي الشيش الوردي، وبأيديهما مشاريب ملونة في كاسات طويلة. كانا سعيدين بالهواء الطلق المعزز بمراوح دائرية ضخمة. رن هاتف م.. فترك المشروب من يده وأمسك بالهاتف. كانت مي. رد: «ألو».

«ماشفتكش ياعم من الهالوين الي فات.. هاتقضي الهالوين السنادي من غيري؟»

«أنا أقدر برضك!»

«العيد بتاعك بقا... هاتقضيه إزاي؟»

«أنكراتي على بانك اتاك يا حُب..»

«طيب كويس ماتعملش حسابي عشان غالبًا هاكون وقتها انتحرت..»

«كفالله الشر يا زفتة..»

«والله الدكتور قالي يا بنتي فيه مشاعر وأحاسيس جواكي طلعيهم للعالم..»

بس ملحقتش أطلع أي حاجة بقا عشان الفيزيتا بقت 350 جنيه...»

«يخربيت عقلك..»

«صحيح البنوتة الجديدة أخبارها إيه؟»

«مش طابقها..»

«ليه كده..»

«محدث عارف هو عاوز إيه ولا بيعمل إيه.. حاجة تطهق..»

«طب رَوِّق كده وسلملي على الأشياء..»

«حاضر تؤمري، ويوصل سلامك للأشياء..»

قال ح. إنه يريد الدخول في مجال الرهانات، وإنه مجال مزدهر في مصر،
الرهان على كل شيء، بداية من نتائج مباريات كرة القدم حتى نتائج الانتخابات

الرئاسية. وحكى له حضوره في الماضي بمحافظته رهانات بآلاف الجنيهات، يديرها رجل ستييني يدعى أحمد سبرتو، في ساحة كبيرة شبه دائرية كان الناس يتعلمون فيها القيادة. الرهانات تُعقد بين سائقي مقطورات كبيرة؛ يتم ربط الكابيتين دون المقطورة بسلاسل معدنية سميكة خلف خلاف، والسائق الذي يقدر على شد الخصم هو الفائز. وهو يحكي مرّت شابة نحيلة ترتدي قميصاً أبيض مشمر الأكمام وجينزاً ممزقاً، حين رأت م. سلمت عليه وسألته عن أخباره ودردشت معه قليلاً ثم مشت. سأله ح. من تكون، فأجاب باقتضاب أنها كانت مُحلّلة النفسية في السابق، ثم ذكره بمناسبة الحديث عن الرهانات برهانها الخاص بأن يظبط مزّة خلال 10 أيام، فجدد ح. الاتفاق وقرر أن رهانها يبدأ من الغد.

بعد مرور أسبوع على انتهاء المهلة ظهر ح..

راه م. مصادفة في بار (زا جاردن) فناده؛ أتى وتحدث معه ببساطة، كأنه تركه على الغداء، عن أمانيه أن ترجع شيري إليه.

تقشير البطاطس

ببطء شديد، خطا خطوات صغيرة ليعبر الحديقة التي لا تتعدى مساحتها بضعة أمتار. وصلت خطواته إلى السور العالي، ليفتح قبالة سوستة بنطاله بيد مرتعشة ويتبول على الورد والزرع. شعاع شمس دافئ سقط على ذكره مباشرة، قطعتة ذبابة سكنت على قمته المرتخية. ظل واقفاً لا يتحرك كأنه في عملية تذكر عميقة.

بعد فترة صمت طويلة، ودون أن يعيد غلق بنطاله، التفت وتحرك ببطء حتى خرج من البوابة الخالية من الحارس الصبي، ومشى مبتعداً عن مبنى الخدمات الملحق بكنيسة (العذراء الطاهرة)، التي شيدها المهندس المعماري نعيم شبيب في سنة 1942 بصفته أحد أبناء الطائفة، قبل أن يصمم «برج القاهرة»، الذي يبلغ ارتفاعه 187 متراً في منطقة الجزيرة، بنحو 15 سنة.

في أقل من ساعة انقلب دار المسنين وزادت سرعة وتوتر حركة العاملين فيه؛ اختفى جدو سعد. الأقدام تطلع وتنزل الأدوار الخمسة بما يشبه الهرولة بحثًا عنه دون جدوى. اتصلت أم م. به كي يساعد في البحث حول الشوارع المحيطة.

بعد ثلث ساعة تقريبًا من السير العشوائي في عِدَّة اتجاهات، وجده على محطة المترو التالية مُنهكًا، أكثر شيخوخة، وغائب العقل. جلس بجانبه وحيّاه، وسأله لما يجلس هنا. قال إنه ينتظر زوجته عير لتمر عليه ويذهبها إلى البيت سويًا. لم يرد م. بأن زوجته متوفية منذ 15 عامًا كما يعرف منه هو نفسه، فقط قال إن زوجته ستمر على الدار وليس هنا. رد بغضب أنه لا يعرف ذلك «الدار»، وأن هذا هو مكان انتظاره المعتاد لها.

اتصل م. بأمه، فجاءت مُساعدة تعمل بالدار وتأبطت ذراع جدو سعد وهي تضحك بصوت عالٍ، قائلة إن الجميع كان يبحث عنه وأنه في غاية الشقاوة، وسألته مداعبة إن كان ينتظر مُرَّته فنفي في عدم فهم وقال إنه ينتظر زوجته عير. بعد تردد سأها: «أنتِ عير؟».



صعد م. مع جدو سعد والمساعدة بالمصعد، وحين دخل المكان رأى جدو عاطف يتجول في الطرقات يتتبع الجدران وهو يتحسسها، مصدرًا صوت حفيف متقطع من شبيهه على أرضية الباركيه، يقول للبعض صباح الخير ويتجاهل الأغلبية.

جدو عاطف كان موظفًا كبيرًا في الشهر العقاري وأولاده كلهم في كندا، يزورونه مرتين في العام ومثل جدو سعد زوجته متوفية. قليل الجسد أسمر اللون يلبس عوينات «قعر الكوباية»، فيبدو شبيهًا بالممثل عبد المنعم مدبولي لكنه أكثر سمرة وأقل حجمًا. أما جدو سعد فتبدو عليه آثار وفرة الصحة في شبابه، عريض الأكتاف قصير وأصلع الرأس من المنتصف. كان جدو سعد يعمل موردًا للجيش الإنجليزي، وفي أوقات أفضل كان لا يتوقف عن الكلام والحكايات، حتى أنه اندفع يحكي له فور رؤيته لأول مرة حكاية حدثت في مراهقته:

«واحنا في أولى ثانوي صاحبي ع الدكة اتفصل من المدرسة والمدير قاله مش هتدخل إلا لما ولي أمرك يحضر.. فراح مدي نص جنيه لسواق شكله محترم عشان يعمل أبوه قدام المدير.. الراجل دخل على المدير وبدأ المدير يتكلم وهو يتكلم.. يقول له ابنك عمل وابنك سوى وابنك شقي وابنك كذا.. الراجل راح قايم ورازع الواد بالقلم وقال له بتخرجني دايمًا مع الناس كده ومش عارف مصلحتك».

ثم ضحك كثيرًا وحكى بدون مناسبة حكاية أخرى بدون رابط بينهما سوى أنهما حدثا في الماضي البعيد:

«أنا كنت بقعد أقشر أشولة بطاطس لوحدي كل يوم، أفتح الإذاعة وأسمع عبوهاب وأم كلثوم وعبد الحى لحد ما صوابعي تورم وتشلب دم، بعدين بقى فريد أكثر صوت بحبه.. بحب الرخامة والبحّة الي في صوته دي.. حافظ كل أغانيه».

أشار جدو عاطف للمساعدة التي دخلت للتو، وهو يقف بجانب طاولة الصالة «كاكا..»، ثم أوضح: «عملت كاكا يا سوسن».

بدال م. كل شيء صعباً ومنهكاً. حتى أبسط الأشياء التي تبدو بدئية وليست في الحسبان. القيام من السرير. ارتداء الملابس. الحمام. التغيير. التنظيف. غلق الحزام. الباب. فتح علبة شوكلاتة. مسك شوكة.

جلس جدو سعد على الكنب أمام التلفزيون وبدأ في البكاء: «يا عبير.. يا عبير.. أنا عاوز عبير.. هاتولي عبير»، وأم م. تربت عليه وتقول له إنهم كلهم معه، وتسأله في لوم مصطنع إن كان مل منهم. لم يهدأ حتى قالت له إن عبير قادمة بعد قليل، وإنها على وصول. بعد أن هداً بالفعل وقال إنه لا يريد أن يأكل سمكاً بل فراخاً، فردت أم م. بلهجة عتاب أمومي: «وبعدين معاك يا جدو.. طيب خلاص أنا هخليهم يعملولك ورك فرخة اللي بتحبتها». بعدها التفتت للمساعدات وتندرت أنه نسي عبير فور ذكر ورك الفرخة، فضحكن جميعاً. شعر م. أنه متورط بشكل ما في تمثيلية مضحكة وسوداء جداً.

عام 1959 ذهبت الأنسة نادية عبد الواحد، إحدى فتيات الطبقة الوسطى بمنطقة هليوبوليس، وبالغة من العمر 25 عاماً، إلى أستوديو فان ليو تطلب منه أن يقوم بتصويرها عارية. يقول ليو عن نادية: في البداية كانت مرتدية

كامل ملابسها، ولكنها بدأت بالتعري تدريجيًا، على مدار 12 صورة، إلى أن صورتها عارية تمامًا.

في كل صورة منها كان يتأمل م. الأوضاع التي كانت تأخذها نادية، والملابس التي ترتديها، أو بالأصح تخلعها، ويرى لمعة الجنون في عينيها القويتين، والشبق الجائع في شفتها السفلى المكتنزة، وجسدها الريان الممتلئ كأنها تستعد أن تكون أمًا مصرية. كانت، باختصار، تذكّره بشيري.

لم تنتقل شيري في الشقة/ دار النشر/ المكنة كما وعدت ح.. لكنها كانت تزوره باستمرار وتبيت عنده في تبادل مع شقتها وشقة أمها التي تعيش مع زوجها الثاني.

ارتبك م. حين رآها للمرة الأولى. فبعد سنوات من استخدام الفيسبوك، بعد رؤية آلاف، بل ملايين من الوجوه، أصبحت جميع الوجوه مألوفة في كل صورة وفي كل مكان. كان في حالة ارتباك دائم: هل رأى هذا الشخص من قبل؟ تحدثنا من قبل؟ بينهما معرفة سابقة؟ بالنسبة له أصبحت كل الوجوه مألوفة وكل الوجوه غامضة.

بجانب شعوره بالارتباك اللحظي، شعر وهي مقبلة عليه أنها تتكوّن من 50 كيلو شاي العروسة، وضعفها علوقية مغوية، وثلاثة أمثالها بودة وكريم أساس، وضحكات مرتفعة في غير موضعها، وثقة في موضعها تخص راقصة أولى.

أول ليلة باتت فيها عندهما خرج ح. من غرفته يدندن كأنه خارج من سرير ليلة الدخلة ذاهبًا إلى الحمام، بوكسر عليه صورة دون كيخوته ينير في الظلام. الفارس على فرسه رافعًا رأسه في شموخ المخلصين البلهاء. كان ح. يستخدم بوكسرات روايته المفضلة في المناسبات الخاصة. نظرم. بجانبه إلى جيني وقال: «هو إحنا ليلتنا فل ولا حاجة!»

تدريجياً، بدأ يعتادم. وجودها في الشقة وفي حياته. يحادثها على استحياء كرفيقة صديقه واشتهاؤه لها يزداد يوماً بعد يوم.

أما هي فمن ناحيتها لم تكن تصد عباراته المنفلتة بل تردها بتحفظ لعب. لذا، فصل في المرات التالية أن ينزل إلى الشارع حتى لا يسمع صراخها وتأوهات عالية التي كانت تمزق أعصابه. لكنه غير هذا الحل سريعاً - بوضع سماعات على أذنه ورفع صوت الموسيقى عاليًا - لأنه آخر مرة بدأ كونشرتو الأصوات قبيل منتصف الليل، ارتدى ملابسه ونزل ليهيم في الشوارع الجانبية واضعاً يديه في جيوبه يفكر في اللاشيء. في ظلام الشارع المجروح بنور أصفر رأى امرأة عجوزاً بملابس ممزقة ومتسخة عديدة الألوان والأقمشة تظهر ساقها النحيلتين وحول وسطها كيس بلاستيكي مربوط، تقبل عليه بوجه مكرمش وشعر قطني مشعث تسأله عن سيجارة.

حين اقتربت وبرزت في نور العامود بدت أشبه بزومبي نحيل. فتحت فمها لتحادثه بابتسامة غريبة فظهرت فجوات سوداء كبيرة بينها أسنان نادرة

مُسوسة وخربة. لكنها لم تبدأ الكلام إلا بعد أن فتحت سوستة بنطالها «الباندكور» القصير تقول بدلع وغنج مرعيين: «ماتيجي تعاشرني؟». هرب الدم من م. ولم يستطع سوى أن يغمغم بـ «شكرًا»، فاشتعل وجهها بالغضب وصاحت فيه بحدة بصوت مغلق لا زال مصبوغًا بالدلع الأنثوي: «إيه.. ما عاشرتش ست قبل كده؟» فهرع عائداً إلى الشقة.

حلم في نفس الليلة أنه في غرفة خالية عالية الحوائط، كأنها زنزانة كبيرة، يُقشّر جبلاً من البطاطس حوله. جبال مقشرة وجبال أكبر منها تنتظر تقشيرها. لا أحد يأتي. فقط يجلس على الأرض يقشر لأن هناك بطاطس تحتاج إلى تقشير داخل الغرفة.

12 صورة

دون أن يبلغه قبلها، استيقظ م. ليجد ح. قد سافر إلى محافظته لإنهاء أوراق لأخيه المسافر.

هاتفته شيري منتصف اليوم، واقترحت عليه أن يقابلها على قهوة التكمعية في وسط البلد. تعلّل بعمل وراءه وعرض عليها المجيء لمصر الجديدة أو حتى الشقة متى تشاء، فأبلغته موافقة بأنها ستنتهي مشوارًا سريعًا وتأتي، وربما تبيت عنده إن لم يكن عنده مانع. نفى م. وجود مشكلة، وشعر بسخونة جسمه تزداد، وطاف بذهنه اثنتا عشرة صورة ألهبت خياله العشري.

كان منطقيًا أن يسأل م. شيري إن كانت قد «وصلت»، إلا أنه انتبه أن في العامية المصرية، كما في الفصحى بما هو معلوم، لا يوجد كلمة تعبر عن ذروة النشوة. أقرب تعبير هو «جبتهم»، وهو تعبير ينم عن الفعل الفيزيقي وليس الإحساس نفسه. ربما يشير ذلك أن المصريين ليسوا مهتمين

بالإحساس بقدر اهتمامهم بالفعل أو الأمور التي تؤدي إليه؛ في الكاما سوترا مثلاً يتم تهमيش هذه اللحظة في سبيل التواصل الجنسي وكيفية مدّه زمنيّاً والإبداع فيه بأكبر قدر ممكن. لكن الغريب أنه لا يوجد نظير لتلك النظرية في الثقافة المصرية، على الأقل بشكل متعارف ومنتشر.

أجابت شيري بنعم وتكمل تقبيله، ثم تضحك وتعتدل وتقوم ذاهبة إلى كنبه الصالة أمام التلفزيون.

«أنا عايزة أشوف فيلم عربي حلو.. مفيش؟»

«في شقة مصر الجديدة، عشان تبقا جنبنا هنا..»

ضحكا الاثنان. وبعد أن جلسا تكورت في حضنه بلباس داخلي استرتش أسود، وتي شيرت رمادي خفيف يُظهر وشم جناحين على عظمة الترقوة مرسوم حديثاً، ووضعت قدمها الخافية البيضاء المكتنزة على رجليه وهي تداعب شعر يده وصدره، وتمسك بالأخرى كانز مياه غازية. وبقياً يشاهدان برنامج مسابقة الغناء (ذا فويس).

أتت بسكوتة وجلست فوقها، فداعبتها بنعومة وأمومة ثم تحشأت بصوت عالٍ فامتلاً المكان برائحة التفاح الأخضر. سألها وهو يدخن سيجارة الحشيش لماذا الأحمر، فأجابت أنها طالما تخيلت نفسها بشعر أحمر، وانتزعت الجوينت من يده وسحبت نفساً جشعاً حبسته بالداخل، ثم أخرجته في الهواء كمنضاد كبير تشكّل حولهما.

اقترح عليها أن يصورها اثنتي عشرة صورة، تبدأ بكامل ملابسها وتنتهي وهي عارية تمامًا. بدا عليها الحماس الشديد واعترفت له أنها كانت ترغب منذ فترة طويلة أن تكون موديلًا عاريًا في جلسة تصوير آرتستيك.

قام ليجلب الكاميرا من الداخل، ووصلت رسالة لشيرين من ح. تقول «بحبك يا بت الكلب»، ولم. بعدها بلحظات تقول «غلبت أقطع تذاكر وشبعت يارب غربة». حين رجع رأى على وجهها، غير المتحمس لعمل أي شيء الآن، التأثير الشديد. شاع في الجو صمتٌ وتغير في المoods بدا أسوأ من مزاج مبارك مساء يوم 11 فبراير. قال لها محاولاً كسر الوجوم المخيم:

«ما تيجي نطلع ومانعملش حاجة عشان نكيد بعض؟»

ضحكت وقبلته قبله شهوانية طويلة وقامت ترتدي ملابسها. جية سوداء قصيرة وبلوزة بفتحة واسعة يتبدى منها مفرق كبير يصنعه نهذاها الكبيران. ربت على كتفه وهي تقول بدلع: «بعدين يا حبيبي أمي كلمتني ولازم أروح».

دَرْسٌ فِي التَّشْرِيحِ

كانت أم خارجة مشهورة بالنكاح. ويقال فيها: أسرع من نكاح أم خارجة. كانت ذواقه، إذا ذاق الرجل وجربته طلقته وتزوجت غيره. تزوجت نيفاً وأربعين زوجاً. وكان الخاطب يأتيها، فيقول: خطب! فتقول: نكح! فيقول انزلي، فتقول: أنخ. وكان أمرها إليها إذا شاءت أقامت وإن شاءت ذهبت، وعلامة ارتضاءها للزوج أن تصنع له طعاماً كلما تصبح. طال مكوث ح. في بلدته، وجاء يوم الهالوين.

ذهب م. وشيري معاً إلى حفل تنكري يقيمه معارف أصدقاء له قرب ميدان (المحكمة). لم يعثر على ملابس تنكرية على مفاصه، ولم يكن معه مال ليشترى زيّاً جاهزاً، فاستخدم جلباباً أبيض جاء هدية له من السعودية وربط قماشة فوق رأسه كأنها غطرة فأصبح خليجياً ضخماً، أما شيري فأصبحت حورية بحر خضراء.

الحفل كان تابعاً لدائرة أصدقائه المثليين، ولم يكن به سوى زوج مغاير غيرهما. لذا ضحك كثيراً لرد الشاب الرفيع، الذي يقف بجانب طاولة المشروبات يمسك بكوب نصف ممتلئ، ويلبس جينزاً وقميصاً عاديين، مستنداً إلى الحائط، حين سأله لم لا يتنكر مثل الباقين، لأنه مال عليه وقال بصوت خفيض كأنه يبوح له بسر: «أنا متنكر.. بس في صورة واحد استريت».

بعد الاختلاط العشوائي في بداية الحفل، تجمع الموجودون في دائرة في الصالة حول لعبة جماعية، عبارة عن بطاقات ولوح فيه مؤشر، حين يدور ويقف طرفه أمام لاعب، فعليه أن ينفذ الأمر المكتوب في البطاقة.

توالى الأدوار وتكرر الضحك الضاح من غرابة الأوامر وطرافتها. جاء الدور على م. وكان الأمر أن يقبل اللاعب الذي سيقع عليه المؤشر. دار المؤشر مرة أخرى ليتوقف أمام شاب وسيم أطول منه - كان صاحب البيت - فضحكوا جميعاً ونظروا إلى م. ينتظرون ما سيفعل، فما كان إلا أن قام في خجل نصف سكران وقبله على فمه.

لا يعرف م. بالتحديد كيف تطور الأمر سريعاً هكذا. دقائق أخرى قليلة وانتهت اللعبة شبه البريئة، ليرى شيري، ومنه لا يزال على بطنها من قبل الحفل، تتمرغ في أحضان الشباب نصف العرايا، المتنكرين بريش أبيض وأقنعة سوداء وبيضاء كمحاريبين أفارقة، تقبلهم بنهم رغم أنهم مثليون.

سألتها وهي تعلق لسان أحدهم وتحضنه بنفس الطريقة التي تحضنه بها عندما تفعل، محاولاً إيقافها، لكنها صدته قائلة بصوت مبحوح من السكر والشهوة: «دي فرصتي.. إديني فرصتي بقا».

دخل إلى الحمام وتقيأ في الحوض. تحوّل من خليجي إلى قاهري مرة أخرى. نظر لنفسه في المرآة بصرامة مدة دقيقتين وخرج.

جلس على الأرض، كقاهري سكران، يشاهد ما تفعله شيري، راسماً على وجهه ابتسامة ثابتة، حتى أن واحداً منهم نظر له بتأثر وحاول أن يقول شيئاً، بينما تمسك هي الأعضاء كما يمسك طفلٌ بحلوى يريدّها جميعاً في نفس الوقت.

تحولت شيري إلى شعلة حمراء في الصالة الكبيرة. تتقاذف كالضفدع ولحمها الأبيض يهتز ويلمع عليه العرق الغزير في الضوء. وهو مسطح على السجادة يتفرج. كانت تصرخ بشكل مبالغ فيه. بشكل لا يُصدّق. وبعد كل مرة تنظر له وتحبّيه بهزة رأس.

انطفأت أصوات الرزع والصريخ والارتطام، وتراجعت إلى الخلفية، وبدأت له الأجسام في مكنونها كأنه يرى بأشعة خارقة ما وراء الحاجب: عظام الرأس فالعظم الإكليلي، وهو تحت قوس الرأس، وهو مقسوم بالوهم وتحتة الجبهة، وفي باطنه يكون الحس المشترك، وأعلاه التخف وفيه نفح الحيوان وفيه مؤخرة النقرة التي فيها العظم الوتدي الذي هو في رأس الفقرات التي هي عمود البدن، وفيها النخاع، وهو داخل في النقرة وعليه

يدور الرأس يميناً وشمالاً، وتحت الجبهة الحياشيم وإلى جانبيها العالين نُقِرَتَانِ هُمَا مَحَلَّ الْعَيْنَيْنِ، الْعِظْمَانِ الْحَجَرِيَّانِ اللَّذَانِ فِيهِمَا الْأُذُنَانِ وَهُمَا مَحَلُّ السَّمْعِ، وفيهما يدخلُ الريح فيَقْبِي الطَّبْلَةَ التي في داخل الأذن في الثُّقْبِ الحَلْزُونِي، فيَصْعَدُ إِلَى قُبَّةِ الدِّمَاغِ فيَدْوِي فيها، فتُدْرِكُهُ الْقُوَّةُ النَّفْسَانِيَّةُ التي من خَصَايِصِهَا الْإِدْرَاكُ بِالْإِرَادَةِ. الإرادة.

كان لا يريد أن يغلق عينيه أو يقوم. كان يريد تسجيل كل لحظة وكل نبضة حتى يستخدمها في مسح محبته. في تذكير نفسه للأبد بما يحدث أمام عينيه المفتوحتين.

في بعض اللحظات تقترب وتضع يدها على كتفه وتمررها في رقعة وتقبله، فيبعد وجهه، فتتنزل القبلة على جانب شفته، لترجع إلى ما تفعله باهتياج طازج. حينئذ عَرَفَ ما تعنيه الشفقة على الذات. دارت دائخة تقدم نفسها لكل واحد كأنه الوحيد. جميعاً بنفس الدرجة. بنفس الإخلاص. كان سيضحك من دروس الأخلاق التي تعطيها له لو لم تكن تصدقها هي نفسها، لكن ذلك كان فوق طاقته.

شعور الحب انطفأ كنهاية سيجارة في دلو ماء. بدأ التفكير في كيفية الانتقام. تصرخ بحدة كأنها تتمزق وأحد الأجساد الرياضية العارية بكوتشي أبيض يرهزها واقعاً وهي تشعبط فيه. تطوَّح وجهها إلى اليمين واليسار وشعلتها الحمراء تتبعها ومؤخرتها ترتج من خبط الجسد. لا يستطيع الوقوف. لا يريد الوقوف. يريد أن يرى ويسجل فقط: الحنك الأيمن، عظم الحنك،

الطرش من الحصى ومن الفحم الزَّيْد في الأذن والبرية الرَّطْبَة. هُنَا يكون اللُّوْقَة. هُنَا يكون الشَّقَاق لِيْنًا وفي الرَّقْبَة وفي الشَّيْخ. هُنَا يكون سَيْلَانُ الدَّم والرِّيَال. هُنَا يكون الإِسْتِرْحَا. هُنَا يكون البيضة والغازُ الرَّطْب واليابس والحر والأضراس والأسنان فمعروفون العِدَّة لِكُلِّ أَحَدٍ. الحُنَّاق في الحَلَح. الحنْكُ الأيسر. ثُمَّ الحَنَكَاَنِ اللِّذَانِ فِيهِمَا الأضراسُ والأسنان وَعِظَامُ رِفَاقٍ، فتبارك الله أحسنُ الخالقين، ثُمَّ إنكم بعد ذلك لَمَيِّتُونَ والله أعلم.

انضم جمع الحفل وصنعوا دائرة كبيرة حولها. جلست علي ركبتيها وارتمت على ظهرها كراقصة شرقية محترفة ثم الجسم من الأعلى إلى الأسفل (غير متضمن الرأس): القلب. خارجُ الزِيَّة. هذه الزِيَّة اليُسْرَى. الطَّحَال. الخاصرة. الخاصرة. الفخذ الأيمن. الفخذ الأيسر. وَيُسْتَحَبُّ عَرْضُ باطن حَوْسِيهِ من مَوْضِع أم قُرْدَان أسفل باطن الرُّسْغ وعظم حافره وارتفاع حواميه وحواميه مَوَآخِرِ حوافره ما ارتفع منه النُّسُور، ويستحب من النسر أن يكون كالحصي والله أعلم. وهذا درسٌ في تشريح صفة الفرس المسطوح على ظهره الغارق كلية في السائل الأبيض اللزج.

وقفت تلهث بعمق وهي تعلق شفاهها. في هذه اللحظة قام وسلَّم على صاحب البيت الذي قبله في لعبة التحدي السكرانة وفتح الباب وخرج. انتبهت شيري وصاحت فيه غير فاهمة وهي تمسح نفسها بمنشفة تسأله إلى أين هو ذاهب. دون أن يلتفت جاوب أنه يجب أن يعود للمنزل. أطلت نصف عارية من الباب تستجديه أن يبقى فهي لا تعرف أحدًا هنا غيره،

وتقول في لوم إنها جاءت معه ويجب أن ترحل معه. التفت لها من السلم وحدّق بها طويلاً. ثم نزل السلام مرة أخرى وهو يرد في هدوء شديد بأنه يجب أن يعود حالاً.

على الهاتف قال إنه يريد أن يعترف له بشيء، لكن ح. قاطعه:

«شيري قالتلي إنك نمت معاها... أنا مش حقول لك غير الي قاله برزان التكريتي لقاضي محاكمته.. قاله أنت أخي يا رجل وأنا أعتز بأخوتك، حتى لو حكمت عليّ بالإعدام فأنت أخي، كل عراقي أخي، هذا ما تعلمناه وشريناه في حزب البعث».

صمت م. طويلاً.

الشَّرُّ

حين دخل ح. من باب الشقة، كان م. متربعا على الأرض يشاهد التلفزيون. لا يشاهد ما يُعرض عليه بل يشاهد التلفزيون ذاته. يشاهد الشاشة السوداء المعلقة أمامه على الحائط. في يده زجاجة بلاك ليبل لا يملأ السائل الأصفر الغامق فيه سوى أقل من الثمن، وفي اليد الأخرى جهاز تحكم البلاي ستيشن، وفي حضنه المانيكان عابرة البحار، جيني، صلعاء الرأس.

بمجرد أن ترك ح. سلسلة المفاتيح على طاولة السفرة، التفت يقول في صوت سكران حزين:

«جيني بتحب الهدوم الحلوة.. بس مش بتهتم بالماركات... جيني يا ح.. أجده من أي معالج نفسي.. وقفت جنبني دايما وحولت تفكيري وتعريفي للحاجات.. الحرية والحب والعلاقات.. الأمور ساعات بتكون صعبة.. تنضيفها من جوه وكده..»

سكت ولم يصف شيئاً حتى ظن ح. أنه نام ليكمل فجأة:

«عشان كده بحب أجيبهم برّه.. في الأول زي أي اتنين جداد في علاقة كان السكس كثير وعلطول.. بس دلوقتي الموضوع مش مهم قوي بالنسبة لينا.. جيني كائن حساس يا ح..، وغلبانة قوي قوي.. رغم إنها مش بترد عليا كثير بس لما بتزعل بتتصلح بسرعة».

استدرك كلامه بابتسامة:

«إنت كنت معاها صح؟... هاتغتصبك يا أهبل... مش قصدي تغتصبك... هاتغتصبك في أفكارك هههههههههههه».

ثم صاح كأنه يخطب في جمع:

«شرا... الكورية.. أبناء الوطن.. علينا أن نتحد جميعاً ضد قوى الشر والشرم... فإن كما ترون.. الشر جزء من كلمة الشرم...، شرا... الكورية.. أبناء الوطن.. يُحكى أن غزالاً شرد في الغابة حتى جن الليل وحار في أمر نفسه وبينما هو.. بينما هو.. ما علينا.. بيقا شيل دي يابني في المونتاج..».

نظر إلى ح. وقال كأنه أدرك للتو الأمر:

«بس تعرف.. الفرق بينها وبين جيني إنها بتعرف تنضف نفسها بعد ما نخلص». ثم صاح بصوت عالٍ جداً:

«بس على ميسيين داخنا ملوك اللوع وأمر الخصاصاااااااااااا».

أردف بنبرة هادئة كأنه يحدث نفسه:

«الحب غلط يا ح... الحب حرام.. نصره لاختواتنا ف غرة.. ولأن الستات غدارين..»

علّق ح..:

«بس عندهم أشياء مهمة ودا يغفر لهم حاجات كتير».

وافق مستسلماً وبحث عن زجاجة الويسكي يقرب منها ما تبقى ليتساقط من جانبي فمه كبطة حزينة. عاد يستأنف:

«عليها بتاع أحلى من سدوم وعامورة.. هاقولك فوزرة: إيه اللي تشوفه بس في مصر الجديدة ووزنه أكثر من 145 كيلو؟»

لم ينتظر إجابته بل أكمل بسيل حر من الكلمات:

«تصدق في الأول مكنتش فاهم إزاي الأيديولوجيا هي اللي بتشتغل.. مش الذوات اللي بيشغلوها.. لكن فهمت بالعمل.. العملي خلاني أسمع حكايات الناس فجأة زي الفلاح اللي بينبسط بالحواديت.. والحواديت مش وحشة.. خصوصاً لما كرشك في المراية كل مرة يجبطك.. القصايد بالانجليزي حل لطيف.. منا محتاج في الشتا قصايد.. آمال هانوّل في إيه؟»

في الأيام التالية شغل م. نفسه بشكل مهووس بالهند. يجلس بالساعات على الإنترنت يتشرب المعلومات تلو المعلومات عن تاريخها وحضارتها ولغاتها وعاداتها وآدابها وفنونها. الهند قارة مكتملة وحدها.

ما أحزنه أنه لم يقدر أن يتمثل الشرق السحري، مع أنه شم العديد من البهارات، وذاق مختلف الأطعمة، ورأى آلاف الصور، وسمع مئات الأغاني، وشاهد عشرات الأفلام والمسلسلات التلفزيونية الطويلة المبتذلة.

في التعليم تبنى وجهة النظر أن تكون اللغة الهندية هي اللغة القومية في جميع الأقاليم، لذا لا بد أن تُدرّس إجبارياً في المدارس، وفي السياسة أن تكون حصة التخصيص، الكوتا، بحسب الطبقة وليس الطائفة.

بجانب ذلك تعلم أيضاً كيفية صنع آيس كريم القشدة والتوت الأزرق منزلياً، بعد محاولات كثيرة فاشلة ضاعت فيها جالونات كثيرة من اللبن والنكهات الصناعية والطبيعية سدى، حتى وصل إلى الطعم والقوام الذي يبحث عنه.

عن طريق الصدفة، وجد بديلاً آخر يمرر به الوقت لا يؤلمه بنفس القدر، وهو يشتري مكونات الآيس كريم من السوبر ماركت القريب، حيث قابل صديقاً فيسبوكياً عزمه لياقي إلى بيته كي يسهر معاً.

واظب على حضور «جلسة الأنس» شبه اليومية في منزل صديقه بشارع (الميرغني). كانت جلسة الكيف والسكر تتكرر بحذافيرها كشرط تسجيل

حي، بنفس الإفيهات والوقفات، ونفس الأسئلة والإجابات والآراء والتعليقات، حتى الأغاني التي كانت في الأغلب طربية وقديمة لمطربين مثل صباح فخري، عبد الوهاب، سيد درويش، وأحياناً -على مريض منه- لطفي بوشناق. لكن سرعان ما انتهى الأمر حين سأله في وسط الجلسة مرة شخص لا يعرفه: «إيه الكلام البضان الي كنت كاتبه النهاردة دا... خرافش بصرحة» دخل المطبخ وخرج يمسك سكيناً طويلاً وهجم عليه وضرب وجهه بالمقبض الأسود فتفجر الدم وسط فزع الحاضرين.

بعدما أنزلوه قريباً من البيت، مر بمحل الحيوانات الأليفة القريب. وجد الباب موارباً. أصابه شعور حاد بالحزن والغضب. دخله بسرعة. رحب به الشاب الرفيع الذي كان يتكلم على الهاتف وتفاجأ بدخوله، وابتسم لتظهر أسنانه البنية القبيحة من السجائر والقهوة والشاي المستمرين.

لم يردم. تحيته، ولم يقل شيئاً، بل رفع خشبة عريضة مسنودة على الحائط، ونزل بها على رأسه.

ارتج الشاب وتحولت ابتسامته الصفراء إلى تقلصات شوهت ملامح وجهه. أكمل ضرباته على رأسه ووجهه حتى أسقطه أرضاً صارخاً: «عشان تبقي تموتلي قطتين يابن ال.....». وأخذ يكرر السباب في هيستريا وهو يضرب جميع الأقفاس، فخرجت الكلاب والقطط والسلاحف والعصافير والطيور، حتى بدا المكان سيركاً ينطلق في فوج رسمي كي يسلي أبناء الحي.

كان واقفاً أمام الباب مغطى كاملاً بالدم، يبدل العصا بين يديه، على
الجانب الآخر من الخوف.

المصحّة

دخل م. المصحّة بعد أن قبّض عليه، ودفع أهله مبلغاً فلكيّاً كتسوية أضرار شخصية وتلفيات ومفقودات ذو الأسنان الصفراء النخرة التي طارت نصفها، والذي كان يرقد في المستشفى بين الحياة والموت.

دخل معه أيضاً طلعت في نفس المصحّة بـ(النزهة الجديدة)، لأن حالته ساءت عندما أوحى له نورهان إنها تخونه مع صديق لها، هو نفسه صاحب شقة (الميرغني) التي تقام بها جلسات الأُنس.

عرف م. بعد خروجه أن طلعت كان يشتمها بصوت عال في كل مكان. يأخذ سيارته ويدور في شوارع القاهرة صارخاً بأنها عاهرة وخائنة، يشتم رجال المرور والمارة والسائقين المجاورين ويكسر عليهم وينزل ليتعارك معهم بالأيدي أو الأسلحة البيضاء. يكلم أصدقاءه واحداً واحداً ليقابلهم

باستخدام حبالها). فور دخول النور عليك الاستيقاظ والنزول. تفتيش ذاتي للنزلاء مرة في الصباح ومرة في المساء. هناك وقت حر للتمشية في الحديقة لمدة ساعتين بجانب حصص العلاج بالرسم والموسيقى والرياضة.

الغريب أنه على عكس ما يشاع عن هدوء المصححات كان القسم الذي يقيمون فيه شديد الإزعاج بصوت التلفاز العالي ودوشة لعب وصياح النزلاء. مع ذلك، استطاع طلعت أن يتخلص من نورهان أخيراً عن طريق جلسات الكهرباء والحوار اليومي مع مُشرفه.

في البداية لم يكن يتذكر سواها، ثم بعد ذلك لم يعد يتذكر سوى أحداث غير مترابطة، وفي النهاية نسيها تماماً.

أما م. فانتظم على أدوية مهدئة ومثبتة للمزاج ثقيلة، راقداً طيلة اليوم يقرأ ويرسم. دوماً الرسمة نفسها؛ حصان مُفلطح أشبه ببقرة حمراء نافقة مُصوّرة من أعلى.



في تلك الأثناء عرف زوج شيري العائد بأمرها.

لأيام متتالية جلس على قهوة (أبناء سوهاج) بقرب الميدان، يحاول التقاط أية معلومة عن أصحاب الشقة. كل يوم في الصباح يشاهد رجلين أربعينين يلعبان الطاولة بفيض ممتد ومستمر من الشتائم البذيئة، يتنافسان في تركيبها وجدتها وقوتها. وفي المساء يرى شلة إسماعيل وعصام، مع بعض

الشباب الأصغر سنًا، يتناقشون بحمية في كيفية أخذ مقاليد الحكم والسلطة، والمعوقات التي أمامهم في سبيل ذلك، والهجمات الإلكترونية التي يقومون بها. يضحكون بعنف على تعليق قاله هذا أو رد فعل غاضب قام به ذاك، وفي نشوة يعودون لمناقشة المشهد السياسي المشتعل ودورهم فيه.

في صباح اليوم الرابع لم يستطع زوج شيري إلا أن يسأل الرجلين لم يتشائما هكذا، ففتح الأضلع ذو الوجه الممتلئ هاتفه ليريه جروب واتساب باسم «وكر الشرام.. أcha»، قائلًا إنها يكملان الشتائم التي لم يسعهما الوقت لقولها في البيت، ويبعثان رسائل الساعة الثالثة أو الرابعة صباحًا تحتوي على عبارات مركبة بصورة عجيبة من الشتائم. بشكل مبهم شعر زوج شيري أن بالأمر شبهة جنسية مما زاد نفوره، فاستغفر وحوقل ورحل.

عاد في المساء وسأل شلة الشباب الثوري عن شقة (يعقوب أرتين) في الدور الثالث التي هي مقر أو مكتب أو شيء من هذا القبيل، ليجابوه إسماعيل أنها دار نشر تسمى «إيليتيس» وصاحبها يُدعيان ح. وم.. وسأله من يريد فيهما، فقال بعد تفكير «ح.» لأنه الاسم المسلم. سأله بدوره إذا كان هناك ستات تصعد إلى تلك الشقة، فقال إنه في الحقيقة لا يعرف، لكن عصام تدخل وقال إنه بالفعل شاهد واحدة بالذات تصعد تلك العمارة وتنزل بشكل متكرر، مليئة الجسد قليلًا وشعرها مصبوغ بلون أحمر. حاول الزوج أن يستنبط شيئًا من تلك المعلومة، لكنه قرر في النهاية أن يواجه

شيري بشكل مباشر لينهي كل هذا الدوار والشك.

دون أن يرمش لها جفن قالت شيرين إنها في مهمة سرية مع المخابرات، ولا تستطيع إعطاءه أية تفاصيل، لكن طبيعة المهمة يتحدد وفقها مصير البلد في هذا المنعطف الخطر.

لم يقدر الزوج المسكين على التماذي في الاستجواب، وأعلن انهزامه الكامل؛ ضربها علقمة موت وطلّقها ثم رجع إلى الخليج، تاركاً خلفه ابنه الوحيد، لتختفي معه في مكان غير معلوم، حتى إلى ح..

المَهْمَة الأخيرة

السكايب مفتوح على الشاشة السوداء. يتحدث ح.:
«بعد ما دورنا وبحشنا وعملنا تحريتنا وتأكدنا من شركات التاكسي في
باريس، وصلنا لنتيجة أن الأستاذة داليا مخرجتش برّه الشقة».
فترة صمت طويلة. ردت د.:
«قصديك إيه مخرجتش بره الشقة؟»
جواب م.:
«ما تبخرتش يعني، لا؟»
فترة صمت. لا رد.
سأل ح. بعد أن أشعل سيجارة:

«مافیش بلاطات مرفوعة، مافیش كسر أو دهان على الحیطة جدید؟»

«لا!»

سأل م. بعدما أشعل سيجارة بدوره:

«كانوا بيكرهوا بعض؟»

جاء صوت د. متردداً بلكنته الفرنسية الواضحة:

«فريدو وداليا؟ ما بينسجموش مع بعض قوي.. بس مش زي مانتا فاكر».

كانت أول مرة تقول اسمه كاملاً. نظرح. إلى م. ثم أطفأ السيجارة في
المطفأة رغم أنها كانت لا زالت في بدايتها وقال:

«بصي يا أستاذة د.. إحنا عندنا شك أن مسيو فريدو له يد في الموضوع،
ومتأكدين أن داليا مخرجتش من الشقة، عندك حل للمعضلة دي؟»

بدا على صوت العميلة العصبية، ربما لأنها كشفت اسم رفيقتها أو لأن
الاستنتاج الذي قيل تَوَّأ بشع للغاية:

«دا آخر كلام عندكم؟»

رد م.:

«لحد دلوقتي.. لو جد جديد أكيد هانبليغك..»

«أو كاي أورفوار».

لم يمر يومان حتى بعثت العميلة د. رسالة مختصرة على الإيميل بأن المهمة انتهت، ولا ينبغي لهما استئناف أي شيء بعد اليوم. راجع ح. الموقع وحساب شركتهم الوهمية ليصيح في غضب: «مابعتش الفلوس بت الوسخة!.. أنا مش هاسكت!».

زاد الطين بلة رسالة ميزو التي أفصح فيها عن كونه في الحقيقة الممول السعودي عبد الله البزوزي، وإنهما مجرد «كاوركات» يتم «اشتغالهما» بسهولة، وأرسل الكثير من وجوه الضحك الصفراء والكثير من الـ «اعوووووووووووووووووووووووو».

اتصل حسين في نفس الأسبوع بـ م. وح. يُوسّطهما في اتفاق توريد أغذية نصف جاهزة لدار العجزة الملحقة بالكنيسة عن طريق أم م.، ولهما نسبة 20% من كل صفقة بصفتها شركاء معه. استغرب م. كيف عرف حسين تلك المعلومات عنه وعن أمه، فقال له ح. إنه حكى لحسين تلك الأشياء في معرض حديث بينهما حين قابله آخر مرة في مدينة نصر.

وافقا الاثنان سريعا، كتعويض لتبخر فرصة الممول السعودي الوهمي والأجر المفقود في مهمة التحري، بجانب إفلاسهما التام تلك الفترة.

تحدث م. مع أمه وأقنعها أن تجعله يتواصل مع الأب القيم على الكنيسة. وافق الأب دون تدقيق كبير، لأن الحالي كان ينهي أعماله في مصر مهاجرا

إلى جورجيا. تفاعل م. بهذه المصادفة السعيدة، وفي نفس اليوم تم الاتفاق مع حسين لجلب البضاعة.

بعد أربعة أيام جاء حسين في الموعد بسيارة ربيع نقل، وبدأ في تنزيل الكراتين والعلب مع السائق الملتحي، يسلمها للمسؤولين عن المطبخ تحت إشراف الأب الراعي شامي الأصل.

دخل م. المبنى صاعداً إلى أمه. لكن لم يكد يخطو بضع خطوات ناحية المصعد، حتى سمع من خلفه تكبيراً بصوت مهستر وحاد، دوى بعده صوت انفجار رهيب، طار على إثره مقذوفاً على طاولة وكراسي مكتب الحارس المرتجل.

قام يتحسس جسده متأكداً أنه سليم. رجع مُهرولاً إلى الخارج. جبهته تنزف الكثير من الدم وهاتفه يرن بإصرار. صوت أمه على «الإنتركم» يصرخ منادياً عليه وعلى الآخرين. خرج في ضوء النهار ليرى حطاماً ودخاناً وأشلاء، استطاع أن يميز بينهم التي-شيرت المخطط عرضياً بخطوط زرقاء داكنة الذي نزل به ح.

نَهَايَات

في أيام صوم أبريل كانت كنيسة (سانت ريتا) تتسع لأكثر من شخص وأقل من شخصين.

(سانت ريتا) كنيسة صغيرة مُلحقة بكنيسة (المارونية) في بداية شارع بيروت، وهي في المحطة الثانية من «مسيرة الكنائس السبع» - المحطة الأولى: كنيسة (البازليك) لللاتين، موقع دفن البارون إمبان. المحطة الثانية: كنيسة (المارونيت) للكاتوليك الموارنة، ويتبعها كابيلا (سانت ريتا). المحطة الثالثة: كنيسة (سانت تريز) للأرمن الكاثوليك في شارع (بيروت) نفسه. المحطة الرابعة: كنيسة (قلب يسوع) للأقباط الكاثوليك في شارع الإمام علي. المحطة الخامسة: كنيسة (العذراء الطاهرة) للروم الكاثوليك الملحق بها العيادات ودار المسنين في ميدان (الإسماعيلية) بشارع نخلة المطيعي، المحطة السادسة: كنيسة (القديس كيرلوس) للروم الكاثوليك أيضًا في

الكوربة. المحطة السابعة: كنيسة (سانت كاترين) للسريان الكاثوليك قرب ميدان (تريومف).

تضاف كنيسة (عذراء فاتيا) للكلدان الكاثوليك في ميدان (سانت فاتيا) إذا لم تحسب الكابايلا كمحطة منفصلة بذاتها.

مقطوعاً مثل يتيم في حفل تكريم للأمهات، يمشي م. مع المجموعة التي كان يعرفها في حياة أخرى. كانوا قد كبروا وزادت عليهم وجوه جديدة أصغر أصابتها الرزانة، يقولون جميعاً بصوت خفيض صلاة السَّبِّحة في شوارع مصر الجديدة.

من كنيسة إلى كنيسة، يدخلون ويصلون «الأبانا» و«السلام» و«المجد»، وهو معهم يعيد في رأسه الأحداث التي وقعت الشهور القليلة الماضية، مترنماً مع الجمع السائر حتى لا تبلل الدموع وجهه.

فكّر في شيرين وظهرها المحنيّ كقوس رديء الصحة، مادة يديها مثل سفينة مُحَطَّمة تطلب السلام، وكيف مد يده دون أن يقول شيئاً، دون أن يشعر بشيء. كيف حضنها وربّت عليها حين انهارت، قائلاً إن كل شيء سيكون على ما يرام، رغم أنه كان يعرف أنه كاذب، فلم يكن شيء أبداً على ما يرام.

فكّر حتى في العصابة التي أرسلت بعدها فتاة سمراء رقيقة تعامله كطفل يعيش في مصر الجديدة، لأنهم يريدون كلمة السر. حاول أن يتذكر

كلمة سر ماذا وفشل في الوصول إلى إجابة، لكنه أقر في النهاية أن الذنب كاثوليكي المنشأ.

حاول التركيز فيما يفعله الآن وهنا. اليوم خميس العهد. خميس الأسرار. كل الكنائس الكاثوليكية تقيم «صمد القربان» لأنه اليوم المخصص لعبادة القربان المقدس ردًا على سؤال المسيح لتلاميذه: أَهَكَذَا مَا قَدَرْتُمْ أَنْ تَسْهَرُوا مَعِيَ سَاعَةً وَاحِدَةً؟

المساء الأبريلي بدأ يحل بالخارج. حانت ساعة السجود ورتبة التوبة. يسمع صلاة السبحة بأصوات مختلطة من المجاميع الأخرى. يشعر أنها تستقبله هو بالذات. الكنيسة ضيقة تتسع لأكثر من شخص وأقل من شخصين. نظر طويلًا إلى تمثال القديسة ريتا داخل الصندوق الزجاجي المليء بورق الأدعية والطلبات. ركع أخيرًا على ركبتيه إلى يسوع المصلوب في المنتصف وبكى.

المؤلف في سطور

مينا ناجي

كاتب وشاعر مصري، وُلِد في الكويت عام 1987. حصل على شهادة هندسة الاتصالات من الجامعة الألمانية بالقاهرة في 2014. عمل بالصحافة الثقافية والفنية وفي مجال الترجمة. نشر نصوصًا ومقالات في العديد من الصحف والمواقع مثل: «أخبار الأدب»، «القبس»، «الأخبار اللبنانية»، «شباب السفير»، «ختم السلطان»، «كتب مملّة» وغيرها..

قائمة أعمال:

كتب:

- «سحرٌ حقيقيٌّ» (2011) - دار «العين» - شعر.
- «الجنْدُبُ يلهو حُرًّا في شوارع القاهرة» (2013) - دار «كلمة» - مجموعة قصصيّة.

- «أسبوع الآلام» (2013) - نشر إلكتروني - شعر.
- «بلا أجنحة» (2016) - دار «روافد» - رواية.

أفلام:

- سيناريو وحوار الفيلم القصير «بهذوء» (2014) الذي عُرض في مهرجانات محلية ودولية عديدة بأسبانيا والولايات المتحدة والسويد، وحصل على الجائزة الأولى في مهرجان بغداد السينمائي الدولي.
- سيناريو وإخراج الفيلم التسجيلي «تبدأ حين تنتهي» (2015) عن وسيلة العلاج الجماعية بالدراما والتمثيل - السيكودراما الحديثة.

برامج:

- برنامج «سوشي بوك ريفيو» على موقع «Youtube»: مراجعات مصوّرة للكتب الأدبية والفكرية ولقاءات مع كتّاب وشعراء (2017).
- بودكاست «مع مينا وإسلام» على موقع «ختم السلطان»: لقاءات مع كتّاب وشعراء ومترجمين حول المشهد الأدبي العربي المعاصر (2019).

البريد الإلكتروني:

mina-nagy-y@hotmail.com